مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد
https://jfpsu.journals.ekb.eg/

P-ISSN: 2356-6493 E-ISSN:2682-3551

حِجَاج عـقـلاء المجانين والحمقى والمُغفَّلِين
مُقاربة تداوليَّة

د/ أحمد صبري سعد الدين السيد
مدرس الدراسات اللغوية
كلية الآداب، جامعة بنها
ahmed.sabry@fart.bu.edu.eg

10.21608/jfpsu.2025.356675.1415

تاريخ الإرسال : ٢٠٢٥/١/٣٠م **تاريخ القبول :** ٢٠٢٥/٢/٢٣م
تاريخ النشر : ٢٠٢٥/٣/٣٠م

This is an open access article licensed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (CC BY 4.0). http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

حِجَاج عــقــلاء المجــانيـن والحــمــقــى والمُغــفَّـلِين
مُقاربة تداوليَّة

مستخلص

يكشف البحث عن الأبعاد الحجاجية والتداولية في خطابات عقلاء المجانين من خلال التركيز على الثنائية الضدية الجامعة بين الجنون والعقل. ويحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١-ما علاقة خطاب الحمقى والمجانين بالتداولية والحجاج؟ ٢- ما المراد بالجنون؟ ٣- ما مقصدية الجنون والحمق في مؤلفات القدامى؟ ٤-هل الجنون عند بعض المجانين قصديٌّ أم مرضيٌّ؟ ٥-ما أهداف الحمقى والمجانين من إدعاء الجنون والحمق؟

ولعل السؤال الأهم: كيف يكون للمجانين والحمقى خطابا تداوليا حجاجيا بالرغم من أن الجنون نقيض العقل أو غياب الإبداع؟

ويعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي من خلال اختيار بعض أخبار الحمقى والمجانين والمغفلين الحوارية من الكتب التراثية وتحليلها؛ للكشف عن الأبعاد الحجاجية والتداولية الكامنة في تلك الخطابات. وتوصل البحث إلى توافر الأبعاد الحجاجية والتداولية في خطابات عقلاء المجانين الذين اتخذوا من الجنون والحمق وسيلة لتحقيق مقاصد وغايات متنوعة، منها: النجاة من الصراع المذهبي السني الشيعي المحتدم بين الأمويين والعباسيين، أو السلامة من التنكيل والاضطهاد نتيجة الاضطرابات السياسية وقتذاك، أو التكسب وجمع المال، أو الحرية السياسية والدينية بتوجيه النقد السياسي والاجتماعي دون المعاقبة والمحاسبة تحت مظلة الجنون والحمق...إلخ.

ولقد تعددت آليات الحجاج في خطابات عقلاء المجانين، نحو: القياس المنطقي، والحجاج المغالط، والجواب المُسْكِت، والسلم الحجاجي. فضلا عن تضافر القرآئن الأسلوبية والتركيبية في خطابات عقلاء المجانين؛ للكشف عن القوة الإنجازية التداولية لتلك الخطابات.

الكلمات المفتاحية: أخبار الحمقى والمجانين، حجاج عقلاء المجانين، السلم الحجاجي، تداولية الخطاب، الأبعاد التداولية والحجاجية، اللسانيات.

Argumentation of the mental disorder pretender, Fools, and Simpletons: A Pragmatic Approach

Abstract

This research explores the argumentation and pragmatic dimensions in the discourses of the mental disorder pretender by focusing on the binary opposition between madness and reason. It attempts to address the following questions:

1-What is the relationship between fools, madmen, and pragmatics and argumentation? 2-What is meant by madness? 3-What is the intentionality behind madness and folly in classical writings? 4- Is madness, in some cases, intentional or pathological? 5-What are the objectives of fools and madmen in claiming madness and folly?

Perhaps the most critical question is: How can fools and madmen have pragmatic and argumentation discourse, despite madness being the opposite of reason or the absence of creativity?

The research employs a descriptive-analytical method by selecting and analysing some dialogic accounts of fools, madmen, and simpletons from classical books to uncover the argumentation and pragmatic dimensions embedded in their discourses. The findings of the research reveal the presence of argumentation and pragmatic dimensions in the discourses of the mental disorder pretender, who utilized madness and folly as tools to achieve various objectives. These objectives include avoiding sectarian conflicts between Sunnis and Shiites during the Umayyad and Abbasid eras, escaping persecution and oppression amid political instability, acquiring wealth, or securing political and religious freedom by criticizing political and social issues without facing punishment under the guise of madness.

The argumentation mechanisms in the discourses of the mental disorder pretender varied, including logical reasoning, fallacious arguments, witty comebacks, and hierarchical argumentation. Additionally, the stylistic and structural clues in their discourses contributed to revealing the performative and pragmatic force of these discourses.

***Keywords*:** The mental disorder pretender, Argumentation of the mental disorder pretender, Argumentative scale, Discourse Pragmatics, Dimensions of Pragmatics and argumentation, Linguistics.

مقدمة:

تدرس التداولية الخطابات الإنسانية عامة، ومن هنا يمكن تسليط الضوء على حجاجية الأفعال والأقوال الصادرة عن المجانين والحمقى والمغفلين العرب في المواقف الخطابية المختلفة من منظور تداولي. فللجنون والمجانين تاريخ[١] ممتد منذ نشأة الجماعات الكلامية؛ وثمة تساؤل: هل خلت الأمم والحضارات الغابرة من المجانين والحمقى؟ وبالطبع ستكون الإجابة بالنفي. فضلا عن أن للجنون خصوصية مميزة له عن الأمراض النفسية كافة، "فهو الوحيد من بين الأمراض جميعًا الذي لا ترتسم خطوطه أو تبرز ملامحه في لقاء خالص مع الطبيعة فحسب، وإنما هو الوحيد الذي يؤكد كذلك هُويته ويكتسب حقه في الوجود، أو بالأحرى في اللاوجود داخل إطار ثقافي"[٢].

ولعل السؤال البديهي الذي يتبادر إلى الأذهان ما علاقة الحمقى والمجانين بالتداولية والحجاج؟ ويدور في فلك هذا السؤال عدة تساؤلات، من مثل: ما المراد بالجنون؟ ما مقصديَّة الجنون والحمق الوارد في مؤلفات القدامى؟[٣] ما دلالات الحمق والجنون في القرآن الكريم؟ هل الجنون عند بعض المجانين قصديٌّ أم مرضيٌّ؟ ما أهداف الحمقى والمجانين؟ ولعل السؤال الأهم: كيف يكون للحمقى والمجانين خطابا ذا أبعاد حجاجية؟

---

(1)Michel Foucault: Historie de la Folie al'age classique, Paris, Galimard, B. H. 1972. والكتاب مترجم بعنوان: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي: ميشيل فوكو، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٤م.

(2)Michel Foucault: Maladie Mentale et Personnalite, Paris, B. U. F. 1954, pp. 66-80.

(٣)تناول القدامى هذه الظاهرة بعين الفحص والرصد في كتب التراث بأشكال متباينة من خلال بيان معنى العقل وأحوال العقلاء والشروط المحصنة لذوي الألباب، منها: الأدب الصغير والكبير: ابن المقفع، تحقيق ودراسة: إنعام الفوال، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م، ٥٢-٥٤. الحيوان: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥، ١٠٥/٣- ١٠٩. البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨ه- ١٩٩٨م، ٢٤٤/١-٢٤٧، ٢٢٥/٢-٢٧٧، ٥/٤-٥٥. العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ه- ١٩٨٣م، ١٥٧/٧-٢٤١. أخبار الحمقى والمغفلين: ابن الجوزي البغدادي، شرح: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ه-١٩٩٠م. جمع الجواهر في الملح والنوادر: أبو إسحاق الحصري القيرواني، تحقيق وضبط: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٣م، ١٦١/٧-١٨٨. بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس: ابن عبد البر القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ٥٣٤-٥٥٦٣. ثمرات الأوراق: ابن حجة الحموي، تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م، ١١٤-١٣٩. المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الأبشيهي، إشراف المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، ١٤١٢ه-١٩٩٢م، ٣١٤/٢-٣٢٦. الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩ه-٢٠٠٨م، ١٥٩/٢٣-١٦٤.

وتجدر الإشارة إلى أن البحث لن يهتم بالجنون النفسي أو العضوي؛ لاختصاصه بعلم الطب النفسي إنما يسلط الضوء على الجنون بوصفه ظاهرة اجتماعية تم توظيفها لتحقيق مقاصد مباشرة وغير مباشرة تبرز من خلال تحاور المتكلمين في موقف كلامي ما في حقب زمنية معينة.

ويعتمد البحث على المنهج الوصفي والتحليلي القائم على انتقاء بعض أخبار عقلاء المجانين والحمقى الحوارية من الكتب التراثية، وتحليلها تحليلا تداوليا حجاجيا؛ للكشف عن الأبعاد المباشرة وغير المباشرة التي تُصيّـرُ العاقل مُدَّعيا للجنون والحمق.

مفهوم الجنون والحمق

تعطي اللغة دلالات خاصة عن "الجنون والحمق"[١] بوصفهما من العوالم الخفية الغيبية؛ ويبرز ذلك عند النظر إلى المركزية الدلالية لمادة (ج. ن. ن) في بطون المعاجم العربية المتمثلة في: الستر، والتغطية، والاحتجاب، والخفاء، والجدة، والنشاط، والغرابة. وهي معانٍ مغايرة للظهور والوضوح والمألوف والمتعارف عليه بين الجماعات البشرية. فعندما يقال جنَّ الليل عليه، أي ستره، وبه سُمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، وسمي الجنين جنينًا لاستتاره في بطن أمه، والجِنُّ والمَجَنَّة: الموضع الذي يُستتر فيه، والجِنان: الأمر الخفي، والجُنَّة، بالضم: ما استترت به من سلاح، ويُقال: الأجنان، أي: القبور والمفرد منه جنين، والمجنون: المقبور[٢]. والمقابر عالم خفي غير معلوم للأحياء. وتزداد هذه الدلالات رسوخًا في الأذهان بما وقر في النفوس –قديمًا– أن عقل الإنسان يختلط حين تمسه الشياطين[٣]، وتخبطه العُمَّار[٤]، وتخبله الجن[٥] على سبيل الغضب[٦]

(١)كثرت الألفاظ الدالة على الحمق والجنون في المعاجم العربية، نحو: الرقيع، المائق الأزبق الهجهاجة، الهلباجة، الخطل، الخرف، البلغ، الماج، المسلوس، المأفون، المأفرك، الأعفك، الفقاقة، الهجأة، الألق، الخوهم، الألفت، الرطيء، الباحر، الهجرع، المجع الأنوك، الهبنك، الأهوج، الهبنق الأخرق، الداعك، الهداك، الهبنقع، المدله، الذهول، الجعبس، الأوره، الهوف، المعضل، القدم الهتور عياياء، طباقاء. ومن أسماء النساء ذوات الحمق: الورهاء، الخرقاء، الدفنس، الخذعل، الهوجاء، القرثع، الداعكة، الرطيئة. وقيل: لو لم يكن من فضيلة الحمق إلا كثرة أسمائه لكفي. أخبار الحمقى والمغفلين: ابن الجوزي، ٢٨-٢٩. ألفاظ الجنون والحمق ومفاهيمها في العربية: كريم حسام الدين، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٤م، ٧.

(٢)ينظر: لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، (د. ت)، (د. ط)، مادة (جنن)، ١٣/ ٩١- ٩٤. تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ه-١٩٨٤م، مادة (ج ن ن). ٣٠٩٤.

(٣)الحيوان، ١٠٥/٣.

(٤)المرجع السابق، ١٩٨/٦.

(٥)المرجع السابق، ١٩٥/٦

أو العشق[١].

وفي المقابل، يشير الحقل الدلالي لمادة (ح. م. ق) في المعاجم العربية إلى البوار والكساد، يُقال: انحمقت السوق إذا كسدت، ومنه الرجل الأحمق؛ لأنه كاسد العقل لا يُنتفع برأيه ولا بعزمه. والحمق أيضًا الغرور، يُقال: سرنا في ليال محمقات، إذا كان القمر فيهن يستتر بغيم أبيض رقيق، فيغتر الناس بذلك ويظنون أن قد أصبحوا فيسيرون حتى يملوا"[٢]. من ثم عُرِّف الحمق بأنه ضد العقل[٣] وحينًا آخر بأنه قلته[٤]. فمقتضى الكلام أن الأحمق لم يكن في بينونة عن نظام العقل، ولكنه عجز عن العمل بمنهجه الواضح؛ لذلك وصفه العرب بالجاهل[٥]. ومن الأقوال والحكم المأثورة: "لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعْيت من يداويها"؛ فمن الصعوبة وضع تعريف جامع مانع للحماقة، فقد قيل لابن شُبْرمة: ما حد الحمق؟ قال: لا حدَّ له[٦].

وحاول الغزالي (ت:٥٠٥هـ) التوفيق بين مفارقة الجنون والحمق قائلا: "الأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض. أما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار؛ فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدًا"[٧]. ومن ثم كان الوصف بالحمق في الثقافة العربية أكبر وأشنع من الوصف بالجنون لما فيه من معنى النبذ والعجز خلاف الوصف بالجنون فإن ما استقر في النفس هو معنى الاختلاف والانقطاع، يروى أن معلم موسى الهادي له في معرض التقريع له: يا أحمق! فهشَّم أنفه، فسأله أبوه المهدي عن السبب؛ فقال: قال لي: يا أحمق ولو قال لي: يا

(٦)المرجع السابق، ٢١٥/٦-٢١٦.
(١)المرجع السابق، ٢١٧/٦ .
(٢)بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ٥٣٧/٢. تاج اللغة وصحاح العربية، (حمق)، ١٤٦٥-١٤٦٦. ولسان العرب مادة (حمق)، ٦٨/١٠-٦٩
(٣)الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ١٥٢/١.
(٤)لسان العرب مادة (أفل)، ١٩/١١.
(٥) ينظر: بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ٥٤٥/٢.
(٦)بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ٥٣٧/٢. فالعرب قد وضعت منازل للحمقى، منها: "الأحمق وفيه بقية، و"الأحمق الشديد الحمق"، و"ذو الحماقة المستحكمة"، و"الذي لا يتمالك أو الهالك حمقاً"، و"الأحمق الذي لا أحمق منه"، و"المطبق عليه حمقا". لسان العرب مادة: (هوك)، (تبب)، (طبج)، (قصل)، (هلبج)، (طبق) بالترتيب.
(٧) إحياء علوم الدين: الغزالي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢، ٥٤/٣. وينظر: ميزان العمل: الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤، ٢٧٥-٢٧٦.

مجنون لاحتملته"[١].

والجنون اصطلاحًا يُراد به "اختلال العقل بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلا نادرًا"[٢]؛ فالمجنون الحقيقي مريض مختل العقل غير مدرك للتصرفات والأحوال والطباع، قد يصل الأمر إلى إيذاء نفسه والآخرين دون عمد أو قصد، لا يفرق بين المقام والمقال في الحالة الخطابية، لا يتسم خطابه الكلامي بالعقل والمنطق. بيد أن أخبار المجانين والحمقى الوارد ذكرهم في البحث على النقيض من ذلك.

ولقد تنبَّه القدامى إلى أن مجانين العرب ليسوا سواء؛ فهناك مجنون حقيقي مريض ومجنون يدَّعي الجنون، وقد أطلقوا على الصنف الأخير مصطلح "عقلاء المجانين"[٣]، ويتضح من هذه الثنائية التركيبية أنه عاقل يدَّعي الجنون. وهؤلاء هم محور البحث.

وكان من الطبيعي أن يقرن البحث بين الحمق والجنون لتداخل حقليهما الدلاليين، يشهد على ذلك أصولهما المعجمية وتعريفهما الاصطلاحي الذي يشير إلى أن الحمق نقص في العقل والجنون فقد أو فساد له. ولا يفرق القدامى بين الحمقى والمجانين في مؤلفاتهم؛ فلا حرج في دلالة الأحمق على المجنون والعكس صحيح؛ فعلى سبيل التمثيل: **(هبنقة)** وصفه القدامى بأنه "أحمق"[٤] في حين وصفه ابن عبد ربه بأنه من المجانين[٥]. والحاصل أن العقل بفعل نقصه وانعدامه إما مشتغل اشتغالًا جزئيًا منقوصًا مضطربًا وإما مختل متعطِّل عن العمل تعطُّلًا تامًا.

وتزخر كتب النوادر بأسمائهم وأخبارهم[٦] الدالة على الجمع بين النقيضين العقل وإدعاء الجنون مثل: **(بَيْهَس)** الذي كان مَضْرب الأمثال العربية في الحمق، "وكان مع

(١)غُـرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائض الفاضحة: محمد الوطواط، تحقيق وتعليق: محمد عبد الله قاسم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ه-٢٠١٨م، ٢٩٣.

(٢)كتاب التعريفات: الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٥، ٨٢-٨٣.

(٣)عقلاء المجانين والموسوسين: أبو محمد الضراب، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م. عقلاء المجانين: أبو القاسم النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ه-١٩٨٧م.

(٤)مجمع الأمثال: الميداني، المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة، (د.ط)، ١٣٤٤ه، ٢٣٢/١.

(٥)العقد الفريد، ١٦٣/٧.

(٦)من المجانين والمُوسوسين والنَّوكى: ابن قنان، وصَبَّاح المُوسَوس، وديسيموس اليوناني، وأبو حَيَّةَ النُّمَيْري، وأبو يس الحاسب، وجعيفران الشاعر، وجَرَنْفَس. ومنهم سارية الليل. ومنهم ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة، وهى التي نَقَضت غزلها أنكاثا، فضرب الله تبارك وتعالى بها المثل، وهي التي قيل لها: « خرقاء وجدت صُوفًا. ومنهم: دُغَةُ، وجَهِيزَةُ، وشَوْلَةُ، ودُرَّاعَةُ القديد المعدية. البيان والتبيين، ٢٢٥/٢-٢٢٦.

حمقه أحضر الناس جوابا، قال حمزة: فمما تكلَّم به من الأمثال التي يعجز عنها البلغاء "لو نكلت على الأولى لما عُدت إلى الثانية"(١)، وكان يُلقَّب بالأحمق الحكيم. وكان **(جحا)** "من أذكياء الناس، وإنما كان بينه وبين قوم عداوة، فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان. وقيل أن **(ابن الجصاص)** كان يقصد التَّبالُه خيفة من الوزير ابن الفرات"(٢). "وقيل إن **(بهلولا)** كان يستعمل الجنون سترًا على نفسه"(٣)، وقال أبو الحسن: كان بالبصرة ممرور يقال: **(عليَّان بن أبي مالك)**، وكانت العلماء تستنطقه لتسمع جوابه وكلامه، وكان راوية للشعر بصيرًا بجيِّده؛ فذكر عن عبد الله بن إدريس صاحب الحديث(٤). وأطلق على **(أبي بكر الموسوس)** لقب سيبويه لكونه "يشبهه في حضور جوابه وخطابه وحسن عبارته وكثرة روايته"(٥)... وغيرهم.

توظيف الجنون وتطوره:

يشهد التاريخ الإنساني على تباين توظيف مفهوم الحمق والجنون عند العقلاء العرب لتحقيق أغراض ومنافع شتى؛ **فـ"جنون الجنِّ والمسِّ"** أول ما عرفته الجماعات الكلامية البدائية التي أطلقت لفظة "الجنون" على كل ما يصيب الإنسان من مكروه؛ فـ"كان هناك اعتقاد بأن لكل مرض شيطانًا مسئولًا عنه، ومن ثم فإن الروح الشريرة التي تسبب مرض الجنون كانت تدعى إيديتا"(٦). فما يصيب الإنسان من جنون ابتلاء مرجعه إلى قوى خفيَّة تتمثل في الشياطين والجنِّ.

وفي الثقافة العربية استعمل **الجنون** للإشارة إلى الخروج عن العادات والتقاليد والأعراف والمعتقدات السائدة عند جمهور الجماعات الكلامية؛ فأطلقوا على **الشعراء** المبدعين المُجيدين مصطلح "المجانين"؛ فـ"كانت الشعراء تزعم أن الشياطين تُلقي على أفواهها الشعر، وتُلقِّنها إياه، وتُعينها عليه، وتدَّعي أن لكل فحلٍ منهم شيطانًا يقول الشعر

(١)مجمع الأمثال،٢٣٣/١.
(٢)ثمرات القلوب، ١٣٠.
(٣)جمع الجواهر في الملح والنوادر، ١٦٤.
(٤)العقد الفريد، ١٦٣/٧.
(٥)يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: الثعالبي، مطبعة حجازي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ٤٣٣/١.
(٦)تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا: كلود كيتيل، ترجمة: سارة رجائي يوسف وكريستينا سمير فكري، مراجعة: داليا محمد السيد الطوخي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ١٦.

على لسانه؛ فمن كان شيطانه أَمْرد كان شعره أَجْود"[١]. ففي البَدْءِ كان الشاعر منسوبًا إلى صاحب من الجنِّ، يُلْهِمُهُ القول الشعريَّ البليغ، وقد ظَلَّت العربُ وقتًا طويلا تفسّر بالجنِّ ما تتعجب منه، وما لا تستطيع له تعليلا ماديا؛ ومن ثم نظر الناس إليهم نظرة قداسة وتبجيل لمجيئهم بقصائد خارجة عن الواقع اللغوي المألوف لهم. ومع مجيء الإسلام تقلصت سلطة جنون الجنِّ الملازمة للمبدعين والشعراء.

ومع ظهور الأديان السماوية، سرعان ما اكتسبت لفظة الجنون معان ودلالات مغايرة؛ فأصبح الخارج عن النسق الديني يوسم بالمجنون،؛ فظهر ما يعرف بـ"**جنون الهرطقة**" عند الغرب المسيحي[٢] الذي وسم المبتدع والخارج عن تعاليم المسيح والمسيحية بالجنون والهرطقة. ومع انتشار الإسلام ظهر ما يمكن تسميته بـ"**جنون النبوة**"؛ فالمشركون اتهموا الأنبياء والرسل بالجنون في مواضع عدة في القرآن الكريم[٣]، فهل كان الأنبياء والرسل مجانين؟ بالطبع لا، إنما المراد هو الطعن في الخطاب القرآني الموجَّه على لسان النبيﷺ إلى أتباع الدين الجديد من خلال اتهامه بأنه "يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل"[٤]، أو "لا يؤخذ بما صدر منه لعدم عقله"[٥]، أو أنه "فاقد العقل"[٦]، أو يعتريه "الهذيان"[٧].

لا ريب أن الباعث الأصلي على التصريح بتلك التهمة لم يكن التصديق بوجودها فعلاً بل الطعن في أهليَّة المتكلم وإرادة التشكيك في الدعوة وصدق الرسالة؛ من ثم حمل

(١)الحيوان، ٢٢٥/٦. شياطين الشعراء دراسة تاريخية نقدية مقارنة تستعين بعلم النفس: عبد الرازق حميدة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٥ه-١٩٥٦م، ٨٨.

(٢)للمزيد ينظر: الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع الدينية المسيحية: ج. ويلتر، ترجمة: جمال سالم، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٥-٣٧.

(٣)ذكرت صفة الجنون في أربع عشرة سورة، وترددت في عشرين آية: سورة الأعراف ١٨٤، الحجر ٦، المؤمنون ٢٥ و٧٠، الفرقان ٨، الشعراء ٢٧، سبأ ٨ و٤٦، الصافات ٣٦، الدخان ١٤، الذاريات ٣٩ و٥٢، الطور ٢٩، القمر ٩، القلم ٢ و٦ و٥١، التكوير ٢٢. بينما اختلف المفسرون في تفسير لفظة "المجنون" في سورتي (الشعراء ١٥٣ و١٨٥)، و(القمر ٢٤ و٤٧). ورد اتهام الرسولﷺ بالجنون في ثلاثة عشرة موضعا سواء كانت الصفة منسوبة إليه أو منفية عنه.

(٤)تفسير البغوي "معالم التنزيل، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة خميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، (د.ط)، ١٤١١ه، ١١١/٦سورة الشعراء ٢٧.

(٥)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢ه-٢٠٠٢م، ٩٥٦/٢٧. سورة الذاريات ٣٩.

(٦)المرجع السابق، ٩٦٢/٢٧. سورة الطور ٢٩.

(٧)تفسير الطبري، تهذيب وتحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه-١٩٩٤م، ٣٥٦/٧. سورة القلم ٥١.

الناس على عدم الإيمان، ويعد التشكيك في قدرات الرسول الذهنية والنيل من مكانته أيسر سبيل لإدراك تلك الغاية، علاوة على الكره والبغضاء والحسد في نفوس الكفار تجاه تشريف محمدﷺ بالرسالة والوحي المعجز؛ فيجننونه حيرة في أمره وتنفيرًا منه؛ فاتهموه بأنه "مجنون" أو "مسحور" أو "المفتون"(١). ونفي القرآن الكريم ذلك الاتهام عن النبيﷺ نفيًا قاطعًا مؤكدًا أن محمدًا "أرجح قريش عقلاً وأرزنهم علمًا وأثقبهم ذهنًا وأصلبهم رأيًا وأصدقهم قولًا وأنزههم نفسًا وأجمعهم لما يُحمد عليه الرجال ويمدحون به. فضلًا عن أن القرآن لم يتناول الجنون بوصفه مرضًا نفسيًا أو عضويًا، وإنما بوصفه تهمة مشينة تطعن في هُوية المُتَّصِف بها وأهليَّته في تحقيق التأثير أو الإقناع في المتكلمين في المواقف الكلامية المختلفة؛ فالجنون مجرد اتهام مُشِين يوجِّهه طرفٌ ويدحضه طرفٌ آخر في عملية خطابية.

وقد يدعي العاقل الجنون على سبيل **التقية أو خوفًا من بطش الحُكَّام**، ولعل أوضح مثال على ذلك الحوار الدائر بين "**الحجاج بن يوسف الثقفي**" و"**مجنون بني عجل**"(٢) وما كان من جوابه حين سأل الأعرابي عن العمال أولًا، وعن الأمير ثانيًا، فذم "**العجلي**" الجميع بأشنع العبارات، ووصفهم بتجاوز حدود الله، وظلمهم للناس والرعية وختم رسم لوحته القاتمة بأن دعا على الأمير دعاءً مُؤلِمًا راجيًا له كل تقبيح وقتل وعذاب، ولما كشف "**الحجاج**" ما كان مستورًا، وأعلن هويته الحقيقية هال "**الأعرابي**" ما أقدم عليه، وراعه الخطر الذي حدق به من كل جانب، فأربدت الآفاق وادلهمت السبل، فلجأ إلى إدعاء الجنون علَّه يستر ما افتضح من أمره فقال: أنا مجنون بني عجل، وإني أصرع في كل شهر ثلاثة أيام، وهذا اليوم أشد الثلاث.

فإدعاء الجنون والعته والحمق كان الحيلة الخداعية الأولى التي لجأ إليها "**الأعرابي**" لإنقاذ نفسه من ظلم "**الحجاج**". ويستدل على ذلك بأن هناك بعض الروايات التي زادت في بيان تمادي "**الأعرابي**" في تقمص دور المجنون بأن جعل يرغي ويزبد

(١)وردت عبارة ""المفتون" مرة واحدة، في سورة القلم ٦.

(٢)تعددت الروايات حول نسبة المجنون، منها: أخبار الأذكياء: ابن الجوزي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م، ١١٥، أخبار الظراف والمتماجنين: أبو الفرج بن الجوزي، عناية: بسام عبد الوهاب الحبابي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه-١٩٩٧م، ١٣١، والمستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الأبشيهي، منشورات دار الحياة، بيروت، (د.ط)، ١٤١٢ه-١٩٩٢م، ٩٢/١.

ويضرب نفسه بالعصي إمعانا في المغالطة[١].

وقد يكون **إدعاء الجنون للتَّكسُّب والرزق**؛ لمعاملة المجتمع الحسنة للمجانين وإحسانهم عليهم، فالجاحظ ذكر أن "الكاغاني" المتسول العاقل كان "يتجنن ويتصارع ويزبد حتى لا يشك أنه مجنون لا دواء له، لشدة ما ينزل بنفسه، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته"[٢]. ولا يخفي توظيف "الهمذاني" و"السرقسطي" و"الحريري" ثنائية الحمق والجنون في المقامات من خلال ابتكار الحيل المضحكة الذكية من أجل التكسب والرزق اتساقا مع أحوال المجتمع العربي وقتذاك؛ "فمنذ القرن السادس للهجرة (الثاني عشر الميلادي) هبطت المعرفة من ذروة الكرامة، وأصبح العارف الأريب مَنْ يحتال على رزقه بالمجون والمنادمة والتحامق والتشبه بالجهلاء وأصحاب الجدود من ضعاف العقول، وشاع القول "بحرفة الأدب" مُغنيَة عن القول ببؤس العالم الأديب"[٣].

وبعد انتشار الإسلام اصطبغ الجنون صبغًة دينيًة محضًة؛ وظهرت الثنائية الضدية للجنون والعقل؛ فالجنون يعني كل ابتعاد عن تعاليم الدين، والعاقل الذي يترك ملذات الدنيا والكبائر، و"المجنون عند أهل الحقائق من ركن إلى الدنيا وعمل لها وطاب بها عيشا"[٤]. وقد اتخذ بعض عقلاء المجانين الزهاد من الجنون سبيلاً لنجاتهم، وتمويه أحوالهم من أجل التأثير في الآخرين بعيدًا عن رقابة المجتمع، فكانت لهم طبيعتين متضادتين؛ فيروى أنه "كان في زمن المهدي رجل صوفي، وكان عاقلًا عالمًا ورعًا فتحمَّق ليجد السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[٥]. وأطلق عليهم العامة "الدراويش"، ويلجأون إلى الخلط بين العقل والجنون بغية السلامة من بطش الحكام المُغيرين على البلاد، وقد يلوذ بهم عامة الناس إيمانا بكراماتهم وشفاعاتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطغاة، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول. و"قد يأتي لهؤلاء المجانين كلام نادر محكم لا يسمع بمثله"[٦].

---

(١)أخبار الأذكياء، ١١٥.
(٢)البخلاء: الجاحظ، تحقيق وتعليق: طه الحاجري، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، (د.ت)، ٥٢.
(٣)جحا الضاحك المضحك: عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣، ١٢٥.
(٤)عقلاء المجانين، ٣٥.
(٥)العقد الفريد، ٧/ ١٦٨.
(٦)المرجع السابق، ١٨٠/٧.

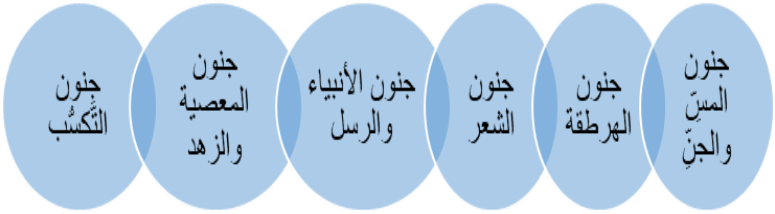

شكل (١) أشكال توظيف الجنون وتطوره

وبعد هذا العرض الموجز، أصبح الجنون اتهاما مشينا يوسم به كل خروج عن الأعراف والتقاليد المتعارف عليها في المجتمعات، فالجنون حكم جاهز على كل ما لم يخضع لضبطٍ مرسومٍ أو رقابةٍ محددةٍ إلى درجة أن الأفعال تبدو نابئة شاذة وقد خرقت النظم وتجاوزت المعايير المتواضع عليها؛ فيتوجب إسكات هذا الصوت المعارض بالطعن في قدراته الذهنية والعقلية واتهامه بالجنون أو يتحامق العاقل عن قصد؛ للنجاة بنفسه من العقاب أو للتعبير عن رأيه دون الوقوع تحت وطأة المعاقبة والقانون. فـ"المجانين على ضروب: فمنهم المعتوه، ومنهم الممرور، وهو الذي أحرقته المِرّة، ومنهم الممسوس، وهو الذي تخبَّطه الجنُّ والشياطين، ومنهم العاشق الذي تيَّمه الحبُّ وأجنَّه"(١). من ثمَّ أصبح الجنون مركبًا يستقل فينجي ومطيَّة تمتطى فتضمن السلامة وحبل نجاة يمتد خلاصًا للغرقى المأزومين. فالجنون "حكم يطلق في وجه كل ما لا يستقيم داخل خطاطةٍ ثقافيةٍ أو سياسية مسبقةٍ"(٢).

على أنه لا يمكن الزعم أن كل ما ذكر من المجانين إنما كان يستعمل الجنون سترا، فهذا أمر يصعب تحديده تحديدًا دقيقًا؛ لكن الثابت أن الجنون قد تم تسخيره فكان بمنزلة المركب المستقل الذي ينقل من محيط المحظورات إلى ضفة ينطلق فيها اللسان ويُباح فيها الكلام.

الحجاج والتداولية في خطابات عقلاء المجانين:

وهنا يأتي دور الإجابة عن السؤال الرئيس للبحث: كيف يكون للجنون خطابًا تداوليًّا حجاجيًّا بالرغم من أن الجنون نقيض العقل أو غياب الإبداع؟ وفي الحقيقة إن

(١)عقلاء المجانين، ٥٩.
(٢)تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي: ميشيل فوكو، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٤م، ١٣.

أخبار عقلاء المجانين قد اتخذت الخطاب الحواري القالب أو النسق اللغوى المتضمن للخطاب الدائر بين الأشخاص في مناقشة موضوع أو قضية ما، ولم يقتصر الحوار بين الذوات المتحاورة على نقل الأخبار بطريقة تجريدية محضة؛ ولكن الحوار يهدف إلى تغيير فكرة أو سلوك معين لدى المتحاورين[١]. وهذا يتفق مع حقيقة الخطابات الإنسانية التي تعد "نشاطًا إنسانيًّا منطلقه –عموما– حدث مخصوص أو مثير يتواصل بواسطته متكلمٌ ما مع مخاطبٍ، مستعملا إشارات لفظية مُنظمَّة حسب شفرة مشتركة"[٢]. فخطابات عقلاء المجانين وقعت نتيجة الخلاف الفكري أو المذهبي أو السياسي بين الذوات المتحاورة حول حوادث أو وقائع أو قضايا معينة بين المتكلمين؛ تؤدى إلى الاستثارة أو الانفعال الذى يستوجب التحاور والتَّكلُّم بغية تأثير أحد الطرفين على الآخر لإقناعه بفكرته أو البنية الدلالية المراد إيصالها في العملية الحوارية.

والبعد التداولي حاضر بقوة في خطابات عقلاء المجانين؛ فالتداولية تركز على عناصر الموقف الاتصالي: المتكلم والكلام والسامع؛ فالمتكلم هو الذي ينتج كلامًا، هذا الكلام هو الذي أنجزه ويقصده، ويهدف به إحداث نتيجة أو يحدث تغييرًا في الواقع وتأثيرًا في السامع وتوجيهه. وتقف التداولية على البعد الإقناعي ما دامت اللغة المستعملة ينتج عنها أفعالًا كلامية تؤدي إلى حمل المتلقي وإقناعه على فعل شيء أو التأثير في معتقده وسلوكه، ويعد التأثير في المستمع أو رد فعله "نتيجة بعد عملية المحاجة، فالمخاطب يحاجج من أجل أن يقنع المخاطب بنتيجة هذه العملية[٣]. هذه النتيجة هي الفعل الناتج عن القول (perlocutionary) في تقسيم أوستين للفعل الكلامي.

الفعل الكلامي أصبح النواة الرئيسة للأفعال الكلامية وحجر الأساس الذي قام عليه الدرس التداولي، فهو أصغر وحدة اتصال إنساني في اللغة يماس بها المتكلم فعلا تجاه سامع، فكل ملفوظ يقوم على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، فضلا عن كونه يعدُّ نشاطًا ماديًّا نحويًّا، يتوسل أفعالًا قولية لتحقيق أفعال إنجازية وغايات تأثيرية تتصل برد

(1) voir: Watzlawick: Une Logique de la Communication Ed. Seuil, 1972. P. 49

(٢) القاموس الموسوعي للتداولية: جاك موشلر وآن ريبول، المركز الوطنى للترجمة، تونس، منشورات دار سيناترا، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، ٥١.

(٣)خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي: عباش حشاني، عالم الكتاب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ١٠٤.

فعل المتلقي، كالرفض والقبول، ومن ثم يطمح المتكلم إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب من خلال أفعال الكلام لإنجاز شيء ما. وشكل "الفعل الإنجازي وحدة الاتصال الإنساني باللغة"(١).

فعقلاء المجانين/(المتكلم) يرسلون (رسالة لغوية مقصودة) ناقدة المجتمع بطريقة فكاهية ساخرة إلى (المخاطبين) على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية معولين على مجموعة من (الشفرات اللغوية) التي توظف الإمكانيات التداولية الحجاجية بشكل فريد. فخطاب عقلاء المجانين والحمقى خطاب عقلاني ساخر في جوهره، يخضع لسلسلة من العمليات الذهنية القائمة على مجموعة القواعد المرتبة ترتيبا منطقيا؛ فللحمقى والمجانين استعمال خاص للغة في خطاباتهم من خلال التركيز على الرسالة الكلامية الموجهة إلى المخاطبين بعبارة بليغة مركزة، مشفوعة بالعبارات الدينية أو الأبيات الشعرية لزيادة التأثير والإقناع.

ولعل اللقطة الأبرز تتمثل في لقاء المجنون العاقل بمحاوريه في لحظة تعني حضور خطاب اللاعقل في السياق الثقافي لخطاب العاقل. يقول المجنون كلامًا يحاسب العقل عليه؛ لكنّه يتستر بالطبيعة المضادّة ليحمي نفسه من المجتمع والقانون، فالمجنون مزدوج الشخصية في الخطاب الحواري: متحامق حاضر البديهة يحاول إيصال المعلومة بطريقة ساخرة، وفي الوقت ذاته يمتلك القدرة على الرد بطريقة يظهر فيها أحمق كاسد العقل. "إن اختلاط الجنون بالعقل، مرة أخرى، في شخصية المعتوه، يعني قدرة اللاعقل على إدراك الحقيقة من جديد"(٢).

فدعوى المتكلم الحجاجية تستفز سامعه وتخلق منه خصمًا ونِدًّا؛ فينتفض ليبادل عنف المتحدث بعنفٍ لغويٍّ مضادٍ أشد وطأةً منه. والمتتبع لحوارات عقلاء المجانين يجد أنهم يحاولون إدارة الحوار بطريقةٍ ناقدةٍ عميقةٍ يغلبُ عليها التَّباله والحمق من أجل إقناع المخاطب والإفلات من العقاب. فهو اتصال حجاجي "هدفه الإقناع؛ ذلك أنه يبحث عن

(١)تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب: محمد العبد، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ٦٥، ٢٠٠٤م، ١٣٧.

(٢)الجنون في الأدب الفرنسي: العقل واللاعقل أو خطاب الجنون عند ديدرو: محمد على الكردي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، ١٩٨٧م، ٣٧.

تحصيل رد فعل على أفكار القائم بالاتصال"[١].

ومن خلال تحليل السياقات الخطابية لخطابات عقلاء المجانين يمكن أن يُعدَّ تأويل ردود عقلاء المجانين مصداقًا للملاءمة القوية التي لا تستدعي مجهودًا وتأويلاً؛ بمعنى أن المخاطب سرعان ما يتمثَّل الإجابة ويفسرها ويتفاعل معها جسديًّا بفقدان بريق الوجه وإشراقه، وكلما كانت الألفاظ والتراكيب اللغوية متوافقة مع السياقات الخطابية ازدادت درجة التقبل والملاءمة لهذه الملفوظات، والعكس؛ فالمثالية تكمن في التوفيق بين المناسبة السياقية والجهد المبذول في إيصال الرسالة اللغوية، وتكمن براعة المتكلم في تحويل العلاقة بينهما من عكسية لطردية.

وتتعدد أطراف المتحاورين في خطابات عقلاء المجانين وموضوعاتها. فمن حيث الأطراف المتحاورة نجد عقلاء المجانين هم الطرف الأول، بينما الطرف الثاني قد يكون عاقلا مجهولا أو خليفة كهارون الرشيد، أو واليًا، قاضيًا، أو تاجرًا، أو فيلسوفًا، أو نحويًّا. وتختلف طبيعة الحوار بحسب طبيعة الطرف الثاني وشخصيته في الخطاب الحواري الدائر بينهما على مستوى الإستراتيجيات والوسائل الحجاجية والتداولية المستعملة بغية تحقيق المجنون مقاصده أو بحسب المساحة الحوارية فمخاطبة العوام تتسم بالقصر والسرعة، بينما تطول المساحة الحوارية عند مخاطبة الخلفاء والولاة والعلماء؛ فلكل مقام مقال. من ثم تتعدد أغراض خطابات عقلاء المجانين، نحو: الخطابات السلوكية التي تبرز سلوكيات عقلاء المجانين حين يدعون الجنون خوفًا أو الصادرة عنهم بطريقة عفوية[٢]، والخطابات الدينية التي تبرز الأحوال الدينية داخل المجتمع والصراع المذهبي بين المتحاورين، والخطابات السياسية الموجهة للخلفاء والأمراء والولاة، والخطابات الاجتماعية الناقدة لأحوال المجتمع. ولن يتطرق البحث إلى الخطابات السلوكية لعدم تعلقها بموضوع البحث.

(1)Martin, Howard, H. Andersen, Kenneth, E.: Speech Communication, Allyn and Bacon, Inc., Boston, 1968, p. 6.

(٢) نحو: من النوكي: عجل ابن لجيم، قال أبو عبيدة: أرسل ابنٌ لعجل بن لجيم فرسا في حلبة فجاء سابقا، فقال لأبيه: كيف ترى أن أسمّيَه يا أبت؟ قال: إفقأ إحدى عينيه وسمِّه الأعور. ومنها: أقبل إلى معاوية بن مروان رجل أحمق منه، فقال له: تعيرنا أصلحك الله ثوبا نكفن فيه ميتا؟ قال: أخشى أنه ينجسه، فلا تلبسه إياه حتى يغسل ويطهر. ينظر بالترتيب: العقد الفريد، ١٧٣/٧-١٧٤. بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ٥٥٣.

المرسل	الرسالة	المستقبل
عاقل مجنون	نقد أحوال المجتمع	الخلفاء
	نقد الحكام	الولاة
	الصراع الديني	القضاة
	المكر والدهاء	التجار
	الفطنة وسرعة البديهة	العوام
		النحاة
		الفلاسفة

شكل (٢) عناصر العملية التواصلية في خطابات عقلاء المجانين

ويعد خطاب عقلاء المجانين من الخطابات الحجاجية الفريدة؛ ففي ضوء قواعد الحوار لدى (موشلر) فإنّ المداخلات الحوارية تضطلع بوظيفتين اثنتين هما: وظائف ابتدارية ووظائف ارتدادية، والأولى تتضمن طلب الخبر والإقرار أو الدعوة والأمر؛ في حين ترتكز الوظيفة الثانية على المداخلات الارتجاعية فهي الأساس المُوّلِد للأجوبة، وتحدد نوع الاستجابة للمبادرة الحوارية، فالوظائف الارتدادية تُقسَّم على قسمين اثنين أيضًا هما: وظائف ارتدادية موجبة يجري فيها موافقة المخاطب ووظائف ارتدادية سالبة يجرى فيها معارضة المخاطب ومخالفته ومعارضته[١].

(١)بلاغة الإقناع في المناظرة: عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣، ١١٢.

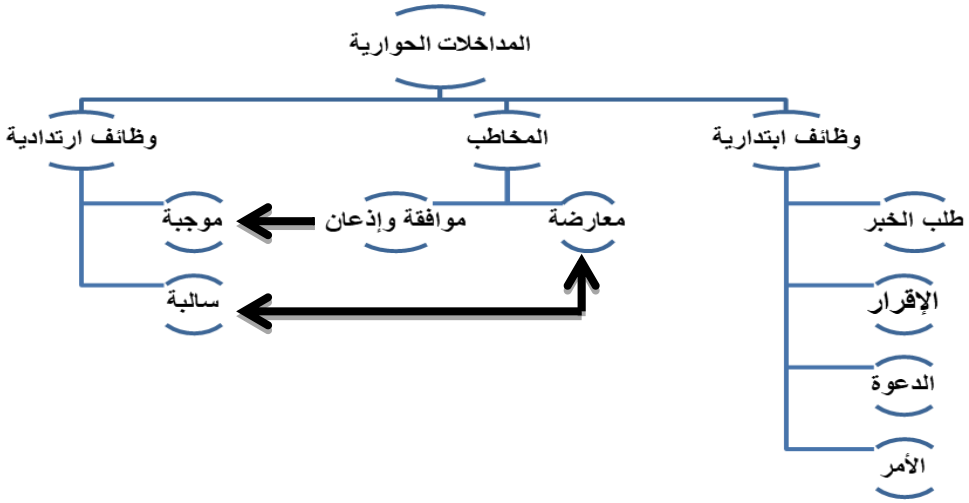

شكل (٣) المداخلات الحوارية في خطابات عقلاء المجانين

فعقلاء المجانين لا يدخلون محاورةً جدلية حجاجية مجانية بل يعمدون إلى تحقيق مقاصد إقناعية أو تأثيرية في المخاطبين، أو ربما مادية للتكسب والمال، ويضمن لهم الحجاج تحقيق ذلك لكونه الطريقة المثلى الكاشفة عن متضمنات القول من قوى حجاجية للأقوال في الحوارات الدائرة بين المتكلمين؛ فلا انفصام بين الحجاج ومتضمنات القول، فالمتكلم المحاجج يحاول توجيه المخاطب وجهة حجاجية ما بـ"إثارة الأذهان وإدماجها في الأطروحة المُقدَّمة، وتفحص أيضا شروط انطلاق الحجاج أو نموه، وما ينتج عنها من آثار[١]. من ثم يصبح "لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان"[٢].

ويضمن عقلاءالمجانين تحقيق مقصدية أغراض الخطاب بنجاح من خلال إستراتيجية "**المفاجأة الحجاجية**"؛ فالمتكلم عاقل بليغ يدعي الجنون يؤسس حجاجه بطريقة سليمة يفاجيء مخاطبًا يظن أن حديث المجنون المُوجَّه إليه سيكون غبيًّا سطحيا؛ لكنه فجأة يجد نفسه أمام محاور مُتمكِّن. وتلعب "المفاجأة الحجاجية" دورها في إشعال الخطاب

(1)Perelman, Chaim: Le Champ de L'argumentation. Paris, presse universitaires de France, p. 33.

(٢)اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ٢٥٤.

بين الطرفين. والمفاجأة في حورات عقلاء المجانين نوعان: الأولى: مفاجأة الموقف المتمثلة في اعتراض المجنون للعاقل أو فعل ما يثير العاقل لاستدراجه للدخول معه في حجاج ما، وعندما يتم الاستدراج تحدث المفاجأة الثانية المتمثلة في مفاجأة الحجاج التداولي الذي يؤدي إلى إسكات المخاطب أو إحراجه. فلا سبيل أمام المخاطب إلا بالاقتناع بالمحتوى القضوي أو الفرار من وجه المجنون أو الإحراج أمام جمهور المتفرجين. فضلا عن أن المخاطب لا يملك سلطة العقاب للمتكلم لكونه من المجانين في نظر المتفرجين.

وتقوم حجاجية خطابات عقلاء المجانين على وجود دعوى أو محتوى قضوي ما مثار خلاف بين الذوات المتحاورة، ويحاول كل طرف دحض هذه الدعوى أو الاعتراض عليها بتقديم أدلة وبراهين تدعم موقفه، ويظل الطرفان في سجال كلامي حجاجي لحين حدوث التأثير أو الاقتناع؛ بيد أن أغلب خطابات عقلاء المجانين غالبا ما تنتهي لصالحهم لاعتمادها على فكرة "المفاجأة الحجاجية". ففي سنن الخطاب: "لا يبلغ فعل (المقول له) في الخطاب فعل (القائل) فيه إذ يظل القائل هو المُبادِر في الفعل القاصد (للمقول له) وتوجيه هذا الفعل؛ وعليه لا ترقى (مفاعلة) القائل (للمقول له) إلى درجة تحصيل تفاعل حقيقي بينهما يتقاسمان فيه مناصفة المبادرة والتوجيه"(١).

آليات التداولية والحجاج في خطابات عقلاء المجانين

من الملاحظ أن محاورات مدعي الجنون والحمق لا تتم بطريقةٍ اعتباطيةٍ وعشوائيةٍ؛ بل تركز على الإمكانيات والتقنيات الخطابية المتاحة بغية التأثير في المخاطب وإقناعه بموضوع الحوار. من ثم يوظف الحجاج بقصدٍ وإرادةٍ حقيقيةٍ من المتكلم لتحقيق إقناع السامع أو المخاطب بدعواه؛ "فليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها، ومحاولة لحيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المُقدَّم"(٢). فالإقناع يمثل الفعل الإيجابي الذي يمارسه المتكلم بسوق الحجة الكافية التي يتطلبها موقف المجادلة والمساجلة من أجل تغيير سلوك المتلقى

(١)في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ٤٨.

ومعتقداته حول فكرة أو موضوع ما. بينما الاقتناع يمثل رد الفعل تجاه الموضوع أو الفكرة محل المحاورة، والاقتناع يحمل ثناية ضدية تمثل القبول أو الرفض.

فالأقوال والخطابات يمكن أن تستغل لغايات حجاجية لتحقيق التأثير والإقناع، فـ"جرايس "Grice جعل كل إخبار حجاجًا، فالحجاج في نظره هو: "تمش يرمي إلى العمل على التأثير في رأي شخص أو موقفه وحتى سلوكه بوسائل الخطاب"(١). فالعلاقة بين الحجاج واللغة والخطاب علاقة تكاملية؛ فهي أسماء مختلفة لمسمى واحد. والحجاج الحقيقة النطقية الإنسانية(٢) في كونهم يشتركون في الوظيفة الإخبارية والوظيفة الاتصالية والوظيفة الإقناعية.

واعتمد حجاج عقلاء المجانين عددًا من الوسائل والإستراتيجيات الحجاجية التي مكنتهم من كسب المعارك الكلامية؛ فحجاج عقلاء المجانين ذو خطاب فريد يتمثل في الاعتماد على التركيز الحجاجي المفاجيء المتدرج؛ يبدأ الحجاج بمتكلم عاقل يحاول الاستهزاء أو السخرية بالمجنون، فيبادله الأخير بسلسلة من الحجج الإفحامية التي تلجم المخاطب، وتلزمه الصمت والسكوت. أو قد يبدأ المجنون بالهجوم على العاقل بعدد من الحجج والبراهين التي تسبب الإحراج للمخاطب العاقل، وتجبره على الهروب أو قصف جبهته فيلوذ بالصمت. واعتمد عقلاء المجانين على ثلاث وسائل حجاجية في محاورتهم للعقلاء هي: القياس المنطقي الصحيح والمغالط، والجواب المُسْكِت، والسلم الحجاجي.

أولا: القياس المنطقي

يُعدُّ القياس المنطقي لبنة أساسية في الخطاب الحجاجي لعقلاء المجانين، ويعرفه "ابن سينا" بأنه: "قولٌ مؤلَّفٌ من أقوال إذا وضعت لزم عنها لذاتها بالعرض قول آخر غيرها اضطرارا"(٣)، فهو بنية تؤدي إلى إثبات قضايا جزئية يطرحها المحاجج في خطابه، ووسيلة منطقية من وسائل التعليق بين الأقوال، فوظيفة القياس المنطقي في الخطاب الحجاجي تتمثل في الانتقال مما هو مُسلَّم به عند المخاطب (المقدمة الكبرى) إلى ما هو

(2)Le Champ de L'argumentation, p. 18.

(١)معجم تحليل الخطاب: باتريك شارودو ودومينيك منغنو، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨م، ٦٩.

(٢)اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢٣٥.

(٣)شرح المقاصد: مسعود التفتازاني، تقديم: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ٩١.

مُشْكِل (النتيجة). فـ"إذا لم يقبل المخاطب المقدمة الكبرى كان الحجاج إذ ذاك سدى[١].

ففي القياس المنطقي يصبح أحد القولين مرتبطًا بالآخر عن طريق تعليقهما بقول ثالث يمثل طبقة من الموضوعات أو المفاهيم أعلى من القولين الآخرين، وهذه البنية قائمة على أهم معايير القياس الأرسطي: المقدمة المنطقية الكبرى، والمقدمة المنطقية الصغرى، والنتيجة. فالقياس المنطقي ينقل الذهن من مرحلة التصور إلى مرحلة التصديق، فإذا كانت المقدمتان تدخلان الذهن في التصور، فإن النتيجة توقعه في التصديق؛ فـ"في الحجاج، لا ينفصل العقل عن الإرادة ولا النظرية عن الممارسة[٢].

ووظف عقلاء المجانين القياس المنطقي في محاوراتهم المختلفة لإقناع المخاطبين بالمحتوى القضوي، ومنها: **سُئِلَ مجنون، وَكَانَ نَاصِبيًّا عَنْ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: مُعَاوِيَةُ لَيْسَ بمَخْلُوْقٍ؛ لأَنَّهُ كَاتِبُ الْوَحْيِ، وَالْوَحْيُ لَيْسَ بِمَخْلُوْقٍ، وَكَاتِبُ الْوَحْيِ مِنَ الْوَحْيِ**[٣].

يبرز الحوار الدائر بين مجنون وعاقل الصراع الديني الطائفي الذي احتدم بعد انتهاء فترة الخلفاء الراشدين، والصراع بين الأمويين والعباسيين، ويتخذ المتكلم من قضية خلق القرآن الكريم ذريعة لبدء الحوار معولا على القياس المنطقي لإقناع المخاطب بمحتواه القضوي.

القضية المنطقية الكبرى	معاوية ليس بمخلوق؛ لأنه كاتب الوحي
القضية المنطقية الصغرى	الوحي ليس بمخلوق
النتيجة	كاتب الوحي من الوحي

شكل (٤) مكونات القياس المنطقي في محاورة عقلاء المجانين

يحاول المجنون إثبات أن معاوية ليس بمخلوق مثل القرآن الكريم؛ فينطلق في محاورته للعاقل من المسلمات والبديهيات والمعلومات المتفق عليها عند الطرفين المتمثلة في كون القرآن الكريم ليس بمخلوق وأن معاوية أحد كُتَّاب الوحي العزيز؛ ليضمن تحقيق إقناع المخاطب، ثم يبدأ في إيراد الحجج والأقيسة المنطقية التي تدفعه إلى الإذعان

(١)النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع: محمد العبد، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ستون، ٢٠٠٢م، ٥٧.

(2)Le Champ de L'argumentation., p. 14.

(٣)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٤١.

والاقتناع معولًا على القياس المنطقي فيبدأ المحاورة بأن القرآن الكريم ليس بمخلوق بل منزل من عند الله، وهي مقدمة تمهيدية أو مسلَّمة حجاجية متفق عليها بين المتكلمين. ثم يبدأ في إقناع المخاطب بالنتيجة الحتمية لهذا الحجاج اللغوي المنطقي المتمثلة في السلمية الحجاجية: بما أن القرآن ليس بمخلوق، ومعاوية أحد كُتَّاب الوحي، ومنزلة كاتب القرآن الكريم (معاوية) من منزلة الوحي؛ إذن معاوية ليس بمخلوق كمثل القرآن الكريم الذي هو أحد كُتَّابِه.

معاوية ليس بمخلوق مثل القرآن الكريم.	نتيجة
مكانة كاتب القرآن الكريم بمثل مكانة القرآن الكريم	قضية منطقية كبرى
معاوية أحد كتاب القرآن الكريم	قضية منطقية صغرى
القرآن كلام الله ليس بمخلوق	مُسلَّمة حجاجية

شكل (٥) القياس المنطقي الديني بين مجنون وعاقل

ويوظف عقلاء المجانين القياس المنطقي للسخرية والتهكم من المخاطبين بطريقة ذكية تشعرهم بالحرج والخجل من صنيعهم، دون تعرض المجنون للمساءلة والأذى حيث **"كَانَ فِي بَنِي أَسَدٍ مَجْنُونٌ يُسَمَّى لُغْدَانُ، فَمَرَّ بِقَوْمٍ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّهِ ابْنِ ثَعْلَبَةَ، فَعَبِثُوا بِهِ، فَقَالَ: يا بَنِي تَيْمِ اللهِ مَا أَعْلَمَ فِي الدُّنْيا خَيْرًا مِنْكُمْ.**

قَالُوا: وكَيْفَ ذُلِكَ؟

قَالَ: لأَنَّ بَنِي أَسَدٍ لَيْسَ فِيْهِم مَجْنُونٌ غَيْرِي، وقَدْ قَيَّدُوْنِي وسَلْسَلُوْنِي. وكُلُّكُمْ مَجَانِيْنُ ولَيْسَ فِيْكُمْ مُقَيَّدٌ"(١).

فالمتكلم يسخر من العابثين به موظفا النداء بوصفه آلية تداولية حجاجية؛ لجذب الانتباه من أجل تحقيق الإقناع والتأثير؛ فالنداء فعل من الأفعال الإنجازية التنبيهية التي تفضي إلى فعل تأثيري في المخاطب إذا كان بعيدًا أو كان غافلًا أو تخصيصه بالنداء دون غيره بيد أنَّ المخاطب ليس كذلك فهو الذي ابتدر بالخطاب، فهذا الأسلوب من النداء يُصَنَّف ضمن الأفعال التداولية التصريحية. ثم يتبع النداء بالمدح الشبيه بالذم تمهيدًا

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣٢٠.

للمحتوى القضوي الذي سيعرضه.

ثم يوظف المجنون القياس المنطقي لإقناع المخاطبين مراعيًا أحوالهم الخطابية المنكرة لكلامه؛ لذا وظف (أسلوب التعليل) و(التأكيد) لزيادة إقناع المخاطبين وإزالة الشك أو الإنكار من صدورهم. ويبرز المجنون المفارقة للسخرية من مخاطبيه حيث يقتضي كلام المجنون أن قومه عقلاء لذلك قيَّدوه بالسلاسل بينما أنتم يا من تعبثون بي كلكم مجانين وأحرار غير مقيدين مثلي.

السخرية والتهكم	نتيجة
وكُلُّكُمْ مَجَانِيْنُ ولَيْسَ فِيْكُمْ مُقَيَّد	قضية منطقية كبرى
بَنِي أَسَدٍ لَيْسَ فِيْهِم مَجْنُونٌ غَيْرِي، وقَدْ قَيَّدُوْنِي وسَلْسَلُوْنِي	قضية منطقية صغرى
يا بَنِي، تَيْمِ اللهِ مَا أَعْلَمُ فِي الدُّنْيا خَيْراً مِنْكُمْ	مدح يشبه الذم

شكل (٦) القياس المنطقي بين لغدان المجنون وقوم من بني تيم الله بن ثعلبة

ويوظف المجنون القياس المنطقي لاستدراج المخاطبين وإقناعهم بالمحتوى القضوي في المحاورة الدائرة بين الطرفين، ويظهر ذلك في حوار (ديسيموس موسوس اليونان) حين "**أسمعه رجل كلامًا غليظًا، وَسَطَا عليه، وفحش في القول، وتحلَّم عنه، فلم يجبه، فقيل له: ما منعك من مكافأته، وهو لك معرض؟ قال: أرأيت لو رمحك حمار أكنت ترمحه؟ قال: لا. قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال: لا، قال: فإنَّ السفيه إمّا أن يكون حماراً، وإما أن يكون كلبا؛ لأنَّه لا يخلو من شَرارة تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه**[(١)].

وعوَّل المجنون على فعل الاستفهام الذي يعد من أكثر الأفعال الإنجازية فاعلية لا بمحتواه الطلبي الإعلامي بل بمرتكزاته الحجاجيّة. و"يعرف تحليل الخطاب الحجاجي السؤال باعتباره نقطة خلاف نتيجة التعبير عن وجهات نظر متباينة في نفس الغرض، وإعادة النظر شرط ضروري لإقامة الحجاج"[(٢)]. ولا يقتضي السؤال في الخطاب الحجاجي جملة إعلامية تتطلب الفهم، أو ينتج عنه جملة من الأفعال الإنجازية الإخبارية الإثباتية؛

(١)البيان والتبيين، ٢٢٧/٢.
(٢)معجم تحليل الخطاب، ٤٦٧.

لطغيان الجانب الحجاجي على الجانب الإعلامي الخبري؛ فالسائل في خطابه الحاجي لا يفوض للسامع المجيب خيارات الإجابة، فلا تتعدد احتمالاتُ الجواب المتوقعة منه، فهو سؤال يوجه الجواب نحو أمرٍ (قال: أرأيت لو رمحك حمار أكنت ترمحه؟ قال: لا. قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال: لا).

يلوح السؤال الجوابي في بنية الخطاب الحجاجي ليخفف من وطأة الهجوم المنبثق عن سؤال حجاجي معترض ومنكر، ويتضمن إدعاء فيأتي سؤال الجواب ليحول الوجهة الحجاجية لصالح المجيب. فسؤال الجواب هو سؤال مضاد لسؤال الإدعاء، "السؤال الجوابي يثبت بأنَّ السؤال الأول إما متسرع، أو غير محسوب، أو إنه قد يجلب نقيض ما يتوخاه منه صاحبه. وغير خاف أن الفعالية الإقناعية للسؤال الجوابي لا تتأتى إلا متى توفر لأحد المتناظرين الحضور المتيقظ وطاوعته سرعة البديهية"(١). فالمخاطب/ (المجنون) يرد على سؤال المتكلم/ (العاقل) ما منعك من مكافأته، وهو لك معرض؟ بسؤالين قائمين على القياس المنطقي: قال: أرأيت لو رمحك حمار أكنت ترمحه؟ قال: لا. قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال: لا، فلا يجد العاقل سوى السكوت أو الهروب من وجه المجنون. فأسئلة المجنون المنطقية أجبرت المخاطب العاقل على التصديق والاقتناع بكلامه.

إنَّ السفيه إمّا أن يكون حمارًا أو كلبًا؛ لأنَّه مجنونٌ أو جاهلٌ	نتيجة
إن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال: لا	قضية منطقية صغرى
أرأيت لو رمحك حمار أكنت ترمحه؟ قال: لا	قضية منطقية صغرى
ما منعك من مكافأته، وهو لك معرض؟	قضية منطقية كبرى

شكل (٧) القياس المنطقي بين ديسيموس موسوس اليونان وجماعة من العقلاء

والناظر يدرك أن هذا التسلسل المنطقي للحجج والأدلة لا يمكن أن تصدر عن مجنون حقيقي، إنما هذه حجج وأدلة صادرة عن عاقل يتخذ الجنون قناعا للتعبير عن معتقداته السياسية والدينية، أو لإبراز عوار المجتمع –وقتذاك– بطريقة تماهي العقل بالجنون.

(١)بلاغة الإقناع في المناظرة، ٢٠٩.

ثانيا: القياس المغالط

ولم يقتصر توظيف عقلاء المجانين في محاورتهم للعقلاء على القياس المنطقي بل أكثروا أيضًا من الحجاج المغالط؛ كونهما من الوسائل المنطقية المهمة التي تكسب الخطاب فاعلية كبيرة، حيث تجعل المتلقي حاضر الذهن، مستنبطا ومستنتجا الدعاوى التي يحملها الخطاب من خلال المقدمات التي يظهرها المحاجج، فالمتلقي يحاول ربط المقدمات بالنتائج التي يريدها المحاجج، ويتضمنها الخطاب.

ويُراد بـ"المغالطة هي التفكير باستعمال المكر والغدر والاحتيال، مع دراية بالقوانين المنطقية، والتفنن في استعمالها من أجل إنتاج الكذب، وإيقاع الآخر في الزيف، وقلب الحقيقة إلى وهم، وتتعمد إيجاد الإقناع عن طريق الإبهار والدهشة، واستخراج الحقيقة من الإحراج والمعضلة التي يقع فيها المحاور"(١).

ويتعمد عقلاء المجانين استعمال القياس المغالط في المحاجة لخداع المخاطبين لإقناعهم بالمحتوى القضوي للمحاورة؛ فالنية السيئة عند المتكلم والمشاغبة(٢) وتعمد إخفاء الحقائق وقلبها عماد المغالطة الحجاجية وأساس تشكلها؛ فالمحاور يراوغ المخاطبين بالمغالطات للتأثير في مشاعرهم لحملهم على الانتقال من طور التصور النظري إلى طور التصديق العملي. فالمغالطة كلام يحتج به المتكلم ليستدل به على صدق دعواه، وهو في الحقيقة غير صالح للاستدلال؛ لأنه "استدلال فاسد أو غير صحيح يبدو كأنه صحيح؛ لأنه مقنع سيكولوجيًا، لا منطقيًّا،على الرغم مما به من غلط مقصود"(٣).

تضمن المغالطات الحجاجية ديمومة الخطاب بين المتحاورين؛ فالمغالطات تنشط الحوار لاعتمادها على الاعتراض والمطالبة بالبرهان والدليل على صحة الدعوى بين المتحاورين؛ فيرتقي الحجاج والخطاب معا إلى مستويات عليا من التفكير والبيان الحجاجي؛ إذ ينتقل الحجاج من الدعاوى غير البرهانية إلى الدعاوى البرهانية. فالمغالط يحاول إثبات ما يريد الاستدلال عليه برده إلى علة مغايرة لعلته الحقيقية. فالمغالطة ضرب

(١)المغالطات في القياس المنطقي عند الإمام الغزالي: هاني علي سليم طليون، مجلة قطاع أصول الدين، العدد التاسع عشر، ١٠٧٢.

(٢)يعرف الجرجاني المغالطة بالمشاغبة. ينظر: كتاب التعريفات،٢٣٩.

(٣)اللسانيات والحجاج، الحجاج المغالط، نحو مقاربة لسانية وظيفية، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، الجزء الثالث، ٢٠١٠م، ١٧١.

من الحجاج، يختلف عن الحجاج المستقيم بكونه يوظف الحجة توظيفًا خاطئًا مقصودًا فإن كانت الحجة مقصودة تهدف إلى التضليل فهي حجة مغالطة؛ بمعنى إذا تعمد صاحبها الغلط قصدًا هادفًا إلى تضليل "المتلقي فإن عمله هذا يُسمَّى مغالطة"(١).

وعليه فالحجاج المغالطي يُراد به أن المتكلم يستعمل حججًا مغلوطةً، أو يوظف خطابًا مليئًا بالمغالطات لحمل المتلقي أو السامع أو المخاطب على الاقتناع، أو تغيير سلوكه تجاه المحتوى القضوي في الحوار. فحقيقة الحجاج المغالط ليست مجرد الدخول في علاقة مع حوارية عقلية منطقية، وإنما هي الدخول في علاقة حوارية عمادها الإدعاء والاعتراض. ومن خلال ما سبق نستنتج أن الحجاج المغالط يتصف بكونه(٢):

١- استدلالًا فاسدًا يبدو كأنه صحيح.

٢- مقنعًا سيكولوجيًا لا منطقيًا.

٣- يعمد إلى الغلط المقصود.

٤- يتخفي وراء الغموض اللغوي أو الإثارة العاطفية، بحيث لا تتبين حقيقته إلا بالفحص الدقيق.

٥- يخرق كل أشكال التواصل والحوار، كما يخرق قواعد الحوار التفاعلي.

فالعاقل قد يدَّعي التحامق والجنون بغية إقناع المخاطب بنواياه ومقاصده مستعملًا الحجاج المغالط وسيلة لتحقيق ذلك، فيذكر **"أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي خَالِدٍ عَرَضَ الْقَصَصَ يَوْمًا عَلَى الْمَأْمُوْنِ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَرَّ بِقِصَّةٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا: فُلانٌ اليَزِيْدِي، فَصحَّفَهُ، وَقَالَ الثَّرِيْدِي(٣).**

فضَحِكَ الْمَأْمُوْنُ وقَالَ: يا غُلامُ ثَرِيْدَةٌ ضَخْمَةٌ لِأَبِي الْعَبَّاسِ؛ فَإِنَّهُ أَصْبَحَ جَائِعًا.

فخَجِلَ أَحْمَدُ وقَالَ: ما أَنَا جَائِعٌ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَلَكِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الرقْعَة أَحْمَقُ وَضَعَ عَلَى يَائِهِ ثَلَاثَ نُقَط، كَأَثَافِ الْقَدْرِ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: عَـدِّ عَنْ هذا؛ فإِنَّ النُّقَطَ شُهُوْدُ الزُّوْرِ، وَالْجُوْعُ أَضْطَرَّكَ إِلَىٰ ذِكْرِ

(١)ينظر: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤١٤ه-١٩٩٣م، ٢٩٧.

(٢)اللسانيات والحجاج، الحجاج المغالط، نحو مقاربة لسانية وظيفية، ٢٧٣.

(٣)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٢٥.

الثَّرِيْدِ.

فلَمَّا أُتِيَ بِالثَّرِيْدِ أَحْتَشَمَ أَحْمَدُ مِنْ أَكْلِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُوْنُ: بِحَقِّي عَلَيْكَ إِلَّا ما أَكَلْتَ.

فتَرَكَ الْقَصَصَ، ومَالَ إِلَى الصَّحفةِ، وأَكَلَ قَلِيْلًا، ثُمَّ دَعَا بِالْمَاءِ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ، ورَجَعَ إِلَى الْقَصَصِ، فَمَرَّ بِقِصَّةٍ عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ: فلانٌ الْحِمْصِي، فَقَرَأَهَا الْخَبيصِي.

فَضَحِكَ الْمَأْمُوْنَ وقَالَ: يا غُلامُ جَامُ خَبِيْصٍ؛ فَإِنَّ غَذَاءَ أَبِي الْعَبَّاسِ كَانَ أَبْتَرَ.

فخَجِلَ وقَالَ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ صَاحِبُ هَذِهِ الرُّقْعَةِ أَحْمَقُ مِنَ الْأَوَّلِ فَتَحَ الْمِيْمَ، فَصَارَتَ كَأَنَّهَا سِنَانٍ.

قَالَ: دَعْ عَنْكَ هذا، فَلَوْلا حُمْقُ هذا وصَاحِبه مُتَّ أَنْتَ جُوْعًا. فَأُتِيَ بِجَامٍ خبيص، فأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ كَثْرَةِ الاسْتِحْيَاء.

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُوْنُ: بِحَقِّي عَلَيْكَ إِلَّا مَا مِلْتَ نَحْوَهُ وَأَكَلْتَ.

فَأَنْحَرَفَ إِلَيْهِ، وأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ، وانْصَرَفَ إِلَى الْقَصَصِ، وَأَحْتَرَزَ في قِرَاءَتِها، وتَثَبَّتَ في حُرُوفِها، فما حَرَّفَ حَرْفاً حَتَّىٰ أَتَى عَلَىٰ آخِرِهَا[١].

يدور الخطاب الحواري بين الخليفة العباسي المأمون ووزيره أحمد بن أبي خالد الأحول الذي يحاول التغفل وإدعاء الحمق والجنون رغم أنه كان "جليل القدر من عقلاء الرجال، وكان كاتبًا شديدًا فصيحًا لبيبًا بصيرًا بالأمور"[٢]؛ فالمتكلم حاول استمالة المخاطب طمعًا في الاستطعام والشراب السلطاني؛ فلجأ إلى تصحيف بنية بعض الكلمات العربية بتغيير نقاط الإعجام الخاصة بها؛ فتحولت" **اليَزِيْدِي**" الاسم المنسوب لقبيلة "اليزيدية" إلى "**الثَّرِيْدِي**" ضرب من الطعام[٣]. وتحول الاسم المنسوب إلى مدينة حمص **(الْحِمْصِي)** إلى **(الْخَبيصِي)** ضرب من الحلوى[٤].

وظَّف المتكلم "**مغالطة الإعجام**" التي يعمد فيها المغالط إلى تغيير بنية الكلمات الواردة في الحوار مما يؤدي إلى تغيير المعاني والدلالات والمقاصد الحقيقة للوحدة

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٢٥.
(٢)الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ابن الطقطقا، دار صادر بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ٢٢٤.
(٣)ينظر: لسان العرب، مادة(ثرد)، ١٠٢/٣.
(٤)ينظر: المرجع السابق، ٢٠/٧-٢١.

اللغوية، ويكون بتغيير المد إلى القصر، أو الوصل إلى الوقف، أو إبدال فونيم بفونيم، أو تغيير الإعراب، أو إبدال التشديد بالتخفيف. وفي هذا الجوار عمد المتكلم إلى تصحيف بنية بعض الكلمات بإبدال حرف بحرف مقارب له في الرسم الإملائي؛ ليوهم المخاطب بمقاصده الخفية في الطعام والحلوى.

فالمتكلم يوهم المخاطب بأن حجاجه صحيحٌ رغم اعتماده على قياس مغالطة الإعجام، ومن ثم يبدو مقنعًا للمخاطب من الناحية النفسية المتمثلة في طلب الطعام من الملك؛ لكنه غير مقنع من الناحية المنطقية بحكم أن الوزير من الأدباء الفصحاء. واعتمد المتكلم الغموض اللغوي بتصحيف بنية بعض الكلمات لإخفاء نواياه الحقيقية في طلب الطعام والحلوى.

وفي كل مرة يحاول المحاجج المغالط إيهام المخاطب بأن الخطأ ناتج عن الوراق كاتب هذه القصص؛ فيوظف أسلوب النفي (ما أنا جائع) وأداة الاستدراك (لكنَّ) لتأكيد سلامة نيته، وأن التصحيف نشأ بطريقة عفوية غير مقصودة. إلا أن حقيقة صنيع المحاجج المغالط تكمن في نفي ما أوجبه، ونقض ما أبرمه من أقوال، وأكثر من المؤكدات الحجاجية المغالطة؛ لأنه بقدر قوة التأكيد تكون قوة النفي؛ فالعلاقة بينهما طرديَّة. ويسمى هذا اللون من الحجاج بـ"**المغالطة بالمراوغة والخداع**"، وهي حجة يسعى من خلالها المحاجج بإثارة إشكالية ما تبعده عن الإشكالية الجوهرية المتنازع عليها(١). وأكثر المتكلم منها ليلقي باللوم والخطأ على الوراق كاتب القصة لخداع المأمون والتأثير فيه؛ ومن ثم الظفر بالطعام والحلوى (ما أَنَا جَائِعٌ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ)، (وَلَكِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الرُّقْعَة أَحْمَقُ وَضَعَ عَلَى يَائِهِ ثَلَاثَ نُقَط، كَأَثَافِ الْقَدْرِ)، (صَاحِبُ هَذِهِ الرُّقْعَةِ أَحْمَقُ مِنَ الْأَوَّلِ فَتَحَ الْمِيْمَ، فَصَارَتَ كَأَنَّهَا سِنَانِ).

(١)إستراتيجيات الحجاج المغالط وأساليبه في التراث العربي: محمد عبد الحميد بو غزالة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد ٢، المجلد ١١، ٢٠١٩م، ٢٨٤.

دَعْ عَنْكَ هذا، فَلَوْلا حُمْقُ هذا وصَاحِبه مُتَّ أَنْتَ جُوْعاً. فَأُتِيَ بِجَامٍ خبيص، فأبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ كَثرَةِ الاسْتِحْيَاء	النتيجة
صَاحِبُ هَذِهِ الرُّقْعَةِ أَحْمَقُ مِنَ الْأَوَّلِ فَتَحَ الْمِيْمَ، فَصَارَتَ كَأَنَّهَا سِنَانٍ.	مغالطة مرواغة
يا غُلامُ جَامُ خَبِيْصٍ؛ فَإِنَّ غَدَاءَ أَبِي الْعَبَّاسِ كَانَ أَبْتَرَ	استمالة/ تأثير
فلانٌ الْحِمْصِي، فَقَرَأَهَا الْخَبيصِي	مغالطة إعجام
عَـدِّ عَنْ هذا؛ فإِنَّ النُّقَطَ شُهُوْدُ الزُّوْرِ، وَالْجُوْعُ أَضْطَرَّكَ إِلَىٰ ذِكْرِ الثَّرِيْدِ	تعليل
وَلَكِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الرُّقْعَة أَحْمَقُ وَضَعَ عَلَى يَائِهِ ثَلَاثَ نُقَط، كَأَثَافِ الْقَدْرِ	مغالطة مراوغة
ما أَنَا جَائِعٌ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ	مغالطة مراوغة
يا غُلامُ ثَرِيْدَةٌ ضَخْمَةٌ لِأَبِي الْعَبَّاسِ؛ فَإِنَّهُ أَصْبَحَ جَائِعاً	استمالة/ تأثير
فُلانٌ اليَزِيْدِي، فَصحَفَهُ، وَقَالَ الثَّرِيْدِي	مغالطة إعجام

شكل (٨) مغالطة الإعجام والمراوغة والخداع بين أحمد بن أبي خالد/ متحامق والخليفة المأمون/ العاقل

وتتجلى مغالطة الإعجام في محاورة أحد العوام لابن الجصاص (عاقل مجنون) حين دخل عليه الأول يوما "**وَالْمُصْحَفُ فِي حِجْرِهِ، وَقَدْ بَلَّ كَاغِدَهُ بِدُمُوْعِهِ، وَأَذَلَّ نَفْسَهُ بِتَضَرُّعِهِ وَخُشُوْعِهِ، فَسَأَلْتُهُ: مَا الَّذِي دَهَاكَ وَأَزَالَ بَهَاكَ؟**

فَقَالَ: أَكَلْتُ مَعَ الْجَوَارِي الْمَخِيْضَ، فَتَعَدَّيْتُ أَمْرَ اللهِ وَخَالَفْتُهُ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ اللهَ نَهَى عَنْهُ وحَذَرَ مِنْهُ.

قُلْتُ: وما الَّذِي أَوْصَى اللهُ بِهِ، وَنَهَى عَنْهُ، وَحَذَرَ مِنْهُ؟

قَالَ: أَكْلُ الْمَخِيْضَ مَعَ الْجَوَارِي.

قُلْتُ: وَكَيْفَ قَالَ اللهُ فِي ذَلِكَ؟

قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾(البقرة: ٢٢٢)، **وقَرَأَهُنَّ بِالخَاءِ. ثُمَّ قَالَ: يَا أَخِي هَلْ**

تَعْرِفُ لِي مِنْ تَوْبَةٍ أَغْسِلُ بِهَا هَذِهِ الْحَوْبَةَ؟

قُلْتُ: التَّضَرُّعُ فِي الدُّعَاءِ بِالإِقَالَةِ، والابْتِهَالُ إِلَى اللهِ بِصِدْقِ الْمَقَالَةِ؛ فَقَامَ وكَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ، وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، ورَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَجِدُ مَنْ تَرْحَمُهُ سِوَايَ، وَلَا أَجِدُ مَنْ يُعَذِّبُنِي سِوَاكَ. فتَرَكْتُهُ وانْصَرَفْتُ مُتَعَجِّباً مِنْ هَذِهِ الْحَالِ مُوْقِناً أَنَّ الْجَدَّ لَا يُلَوَّنُ بِسَعْيِ المحتال(١).

فابن الجصاص/ (عاقل مجنون) عمد إلى مغالطة الإعجام بتصحيف الحاء المهملة في لفظة (المحيض) بالخاء المعجمة في لفظة (المخيض)، ولا يخفي التباين الدلالي الناتج عن مغالطة الإعجام بين اللفظتين؛ فالمخيض هو "اللبن الذي أخذ زبده"(٢)، بينما المحيض منكر يراد به الدم الذي يسيل من رحم المرأة البالغة في أيام معلومة من كل شهر. فالمغالطة اللغوية نجم عنها تحول الدلالات والمعاني للنقيض.

وحاول ابن الجصاص/ (عاقل مجنون) تثبيت هذه المغالطة في ذهن السامع مُعوِّلًا على التكرار اللفظي لها، وحاول إيهام السامع بتصديق هذه المغالطة بالمغالطة في نطق الآية الكريمة لخداع المخاطب بصدق دعواه، وقد سبق ذلك التهيئة النفسية للمخاطب بالتعويل على الأفعال الكلامية **(وقَدْ بَلَّ كَاغِدَهُ بِدُمُوْعِهِ)، (وأَذَلَّ نَفْسَهُ بِتَضَرُّعِهِ وَخُشُوْعِهِ)، (فَتَعَدَّيْتُ أَمْرَ اللَّهِ وَخَالَفْتُهُ)، (وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ اللهَ نَهَى عَنْهُ وحَذَرَ مِنْهُ)**. فالقوة الإنجازية المباشرة لهذه الأفعال تتمثل في الندم والبكاء المزيف لارتكاب هذه المعصية، بينما تتمثل القوة الإنجازية المقصودة من توظيف "ابن الجصاص" لمغالطة الإعجام في إلهاء المخاطب عن مشاركته في تناول المخيض معه.

ويوظف عقلاء المجانين القياس المغالط في إبراز الصراعات الكلامية والمذهبية بين الفرق الكلامية التي وجدت في كنف الخلافة الأموية والعباسية أرضًا خصبةً للازدهار والنمو. فقد قيل لبرذعة الموسوس: **أيُّما أفضل غيلان أم مُعلَّى؟ قال: مُعَلَّى. قالوا: ومن أين؟ قال: لأنه لما مات غيلان، ذهب مُعَلَّى إلى جنازته، فلما مات مُعلَّى لم يذهب**

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٣٨.
(٢) لسان العرب، مادة (مخض)، ٢٢٩/٧.

غيلان إلى جنازته[١].

يكشف الحوار المتبادل بين "برذعة" و"مخاطبيه" عن الصراع بين مذهب القدريَّة والتَّشيُّع؛ فالقدريَّة يمثلها "غيلان بن مسلم الدمشقي القدري"[٢] تلميذ معبد الجهني بينما يمثل مذهب الشيعة الروافض "مُعلَّى بين خنيس"[٣]. وكان "غيلان الدمشقي" معارضًا للأمويين لرفضه للتغيرات السياسية التي أحدثوها على نظام الخلافة الإسلامية، وخالف "غيلان" رأي جمهور العلماء –آنذاك– الذين ذهبوا إلى عدم جواز الخروج على الحاكم؛ لأنه قدر من الله، وأن كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون مستقبلا بأمر الله وقدره؛ مبررين بذلك حكم بني أمية للمسلمين. وخالف "غيلان" رأي الخوارج في الخلافة والإمامة حيث رفض حصر الخلافة والإمامة في بني أمية والشيعة، ورأي أنها الأصل فيهما إجماع الأمة وأن يقيم الحاكم القرآن والسنة ولم لم يكن قرشيًّا. وعلى الرغم من اتفاق الشيعة على الخروج على حكم بني أمية إلا أنهم يؤمنون بإمامة الفقيه.

ويبرر ذلك سبب تفضيل "برذعة الموسوس" "لمُعلَّى بن خنيس" على "غيلان الدمشقي"؛ لاتفاقهما في التَّشيُّعِ. ويوظف "برذعة الموسوس" المغالطة المنطقية الحجاجية لإقناع المخاطبين بأفضلية "مُعلَّى بن خنيس"؛ لأنه حضر جنازة "غيلان" عند موته، بينما لم يحضر "غيلان" جنازة مُعلَّى. فـ"المغالطة لا تأتي إلا نتيجة لقصدنا في إيقاع الآخرين

---

(١)بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ٥٥١. العقد الفريد، ١٧٨/٧. لم يعرف المحقق بـ(غيلان) و(مُعلَّى). وتعددت الأشخاص الذين حملوا هذين الاسمين في كتب التراجم والسير، منها: غيلان بن جرير، وغيلان بن سلمه، وغيلان بن عبد الله العامري، وغيلان بن عقبة، وغيلان بن عمرو. ومعلى بن أنس، ومعلى بن حيدرة، ومعلى بن عبد الرحمن، وأبو المعلى الكلابي. ينظر: البداية والنهاية: ابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه-١٩٩٧م،(١٢/ ٣٩٩)، (٧/ ٦٣، ٩/ ١٩، ١٠/ ٢٠٥)، (٤/ ٤٢٢)، (١٣ /٧٨-٨٠)، (٧/ ٢٦٧)، (١١/ ٨١)، (١٦/ ٥٤)، (١٠/ ٦٨٣)، (١٣/ ٦٧٤). الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ه-٢٠١٩م، ١٢/٦. ميزان الاعتدال في نقد الرجال: الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، ١٣٨٢ه-١٩٦٣م، ٣٣٨/٣، ١٤٧/٤-١٥٣. التاريخ الصغير: البخاري، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ه-١٩٨٦م، ٢٩٥/٢، ٣١٤.

ومن المرجح أنهما غيلان بن مسلم الدمشقي القدري ومُعَلَّى بن خنيس الشيعي؛ لكونهما الأشهر وقتذاك، ولوجود اختلافات فكرية بين الشخصين، ولتقارب سنوات وفاتهما لتتماشى مع سياق كلام برذعة المجنون. فضلا عن أغلب من أطلق عليه الاسم متشابهون في كونهم من رواة الأحاديث.

(٢)غيلان بن أبي غيلان بن مسلم المقتول بالقدر، ضال مسكين، وكان من بلغاء الكتاب. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٣٣٨/٣.

(٣)مُعَلَّى بن خنيس الكوفي، من كبار الروافض. لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، عناية: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ه-٢٠٠٢م، ١١١/٨

في الغلط والتمويه عليهم وتضليلهم"[١].

وتكمن المغالطة في الفارق الزمني بين وفاة الرجلين؛ فغيلان قتل على يد هشام بن عبد الملك[٢] سنة (١٠٥هـ) ، بينما كان موت " مُعلَّى بن خنيس" سنة (١٣١هـ)؛ مما يعني أنه لم يحضر جنازته. ووظف "برذعة الموسوس" المغالطة الحجاجية المنطقية لإقناع الجمهور بأفضلية معلى على حساب "غيلان" بخداعهم عن طريق المغالطة التاريخية.

إذن "مُعلَّى" أفضل من "غيلان"	نتيجة
لم يذهب "غيلان" إلى جنازة "مُعلَّى"	قياس مغالط
ذهب "مُعلَّى" إلى جنازة "غيلان"	قياس مغالط
"مُعلَّى" أفضل من "غيلان"	قضية منطقية كبرى

شكل (٩) المغالطة التاريخية بين برذعة الموسوس وأحد العوام

كان الحجاج المغالط طريقةً شائعةً على ألسن المجانين؛ لكونها وسيلة ناجعة في التلاعب بعقول المخاطبين لإقناعهم عن طريق التحايل والمشاغبة الكلامية، فثمة تقارب بين خبر "برذعة الموسوس" السابق وخبر "أبي عبد الملك عناق" حين قيل له: **بأي شيء تزعمون أن "أبا علي الأسواري" أفضل من "سلام أبي المنذر"؟ قال: لأنه لما مات "سلام أبو المنذر" مشى "أبو علي" في جنازته، فلما مات "أبو علي" لم يمش في جنازته**[٣].

فالتقارب بين الخبرين واضح؛ فالحديث عن شخصين هما: أبو على الأسواري[٤] شيخ معتزلي بصري، "كان يذهب إلى القدر والاعتزال، ولا يقيم الحديث"[٥]، وسلام أبو المنذر[٦] القاريء النحوي الكوفي، "لم يكن أحد أشد على القدريَّة منه"[٧]. وتكمن المغالطة

(١)مقدمات في علم المنطق: هادي فضل الله، دار الهادي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، ٣٨٢.
(٢)البداية والنهاية ١٩٣/١٣.
(٣)العقد الفريد، ١٧٨/٧. روى الجاحظ الخبر عن طريق عيَّاش بن القاسم لجعفر بن أخت واصل. ينظر: البيان والتبيين، ٢/ ٢٣٤.
(٤)أبو علي عمرو بن فائد الأسواري، من كبار المتكلمين من أهل البصرة، وتوفي بعد المائتين بشيء يسير. الفهرست: ابن النديم، تحقيق: رضا تجدد، (د.ط)، (د.ت)، ٢٠٥.
(٥)لسان الميزان، ٢٢٠/٦-٢٢١.
(٦)سلام بن سليمان أبو المنذر المُزَنِي البصري، الإمام الحجة، القارئ الثقة، النحوي الفصيح، قاريء الكوفة المعروف بالخراساني، شيخ يعقوب الحضرمي الإمام الثامن من أئمة القراءات. يقول يعقوب ابن إسحاق: لم يكن في وقت سلام أبي المنذر أعلم منه، وكان فصيحا نحويا. معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محمد سالم محيسن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه-١٩٩٢م، ٢٧٢/١-٢٧٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ١٧٦/٢- ١٧٧.

في تاريخ وفاتهما، فأبو على الأسواري توفي سنة (٢٠١هـ)، بينما كانت وفاة سلام بن أبي المنذر سنة (١٧١هـ) ؛ مما يؤكد عدم حضور أحدهما جنازة الأخر التي عدَّها أبي عبد الملك عناق معيار المفاضلة بين الرجلين. بالرغم من قول الرجلين بالقدريَّة إلا أن المتكلم حكم لأبي علي الأسواري بالأفضلية لاتفاقه معه في الاعتزال والتَّشيُّع رغم إنكار أبي علي الأسواري للحديث(١). لم يفضل سلام أبا المنذر رغم كونه من أئمة القُرَّاء والنحاة الثقات لمغالاته في القدريَّة، وهذا يتنافي مع معتقده الديني والسياسي المُناهِض لحكم الأمويين.

إذن "أبو علي الأسواري" أفضل من "سلام أبي المنذر"	نتيجة
لم يمش "سلام أبي المنذر" في جنازة "أبو علي الأسواري"	قياس مغالط
مشى "أبو علي الأسواري" في جنازة "سلام أبي المنذر"	قياس مغالط
"أبو علي الأسواري" أفضل من "سلام أبي المنذر"	قضية منطقية كبرى

شكل (١٠) المغالطة التاريخية بين أبي عبد الملك عناق وأحد العوام

ويعول المتكلم على الحجاج المغالط لإبراز انفعالاته الدينية والسياسية؛ فيروى **أنه "دخل رجل من العامة الجهلة الحمقاء على شيخ من شيوخ أهل العلم، فقال: أصلح الله الشيخ، لقد سمعت في السوق الساعة شيئًا منكرًا، ولا ينكره أحد. قال: وما سمعت؟ قال: سمعتهم يشتمون الأنبياء! قال: ومن المشتوم من الأنبياء؟ قال: سمعتهم يشتمون معاوية. قال: يا أخي ليس معاوية بنبي. قال: فهبه نصف نبي لِمَ يُشْتَمْ؟!"**(٢).

فالمتكلمُ يُغالِطُ الشيخَ بإدعاء أن الناس يشتمون الأنبياء والعلماء صامتون لا ينكرون هذا الفعل الشنيع. وعندما سأله الشيخ عن النبي المشتوم غالطه بذكر "معاوية بن أبي سفيان"، فصرح له الشيخ بأن معاوية ليس من الأنبياء. يبدو أن الشيخ كان من بني العباس لعدم إنكاره شتم العامة لمعاوية؛ ومن ثم عبر المتكلم عن استيائه من جواب الشيخ موظفا أسلوب الاستفهام الإنكاري: **(فهبه نصف نبي لم يشتم؟!)**. فـ"طاقة السؤال الإقناعية تنبني في أغلب الأحيان على الضمني لا على المُصرَّح به وهو أمر تعرَّض له ديكرو في

(٧)تهذيب الكمال في أسماء الرجال: جمال الدين المزِّي، تحقيق وضبط: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م، ٢٩٠/١٢.
(١)الكامل في ضعفاء الرجال: ابن عدي الجرجاني، دار الفكر، (د. ط)، (د. ت)، ١٧٩٧/٥.
(٢)بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ٥٥٢.

إطار نظرية المساءلة حين بيَّن أنَّ الافتراضات الضمنية في بعض الأسئلة هي التي تجعل الاستفهام أسلوبًا حجاجيًّا؛ لأن أية إجابة مهما كان نوعها لابد أن تُسلِّمَ بتلك الافتراضات، بل تقرُّ ضمنيا بصحتها"(١).

حاول المتكلم التنفيس عما يدور بمشاعره ووجدانه كراهية شتم العامة لمعاوية؛ فلجأ إلى **المغالطة العاطفية**(٢) التي تعول على استثارة المشاعر والانفعالات؛ فألحق معاوية بالنبيين ليستثير الشيخ لإنكار سبِّ العامة لمعاوية لكن هذه الحيلة والخديعة لم تحرك مشاعر الشيخ؛ من ثم فشل محاولة الحجاج والإقناع والاكتفاء بالتعبير عن مظاهر الانفعال والاستياء من سب معاوية على ألسن العامة.

فهبه نصف نبي لم يُشْتَمْ؟!	مغالطة عاطفية
يا أخى ليس معاوية بنبي	نتيجة
سمعتهم يشتمون معاوية.	قضية منطقية كبرى
سمعتهم يشتمون الأنبياء!	مغالطة عاطفية
لقد سمعت في السوق الساعة شيئاً منكرا، ولا ينكره أحد	قضية منطقية صغرى
أصلح الله الشيخ	استمالة/ أسلوب تلطُّف في الخطاب

شكل (١١) المغالطة العاطفية بين رجل من الحمقاء/ متكلم مع أحد رجال الدين/مخاطب

ويتَّخذُ المتكلم الحمق والجنون مطيَّة للسخرية من المخاطب أو الجمهور أو للتحايل بإقناعهم بمحتوى قضوي ما؛ فالمخاطب يريد السخرية من المجنون أو المخاطب عامة؛ فيلجأ الأخير إلى تعمد التغافل والتحامق، نحو: **"قِيلَ لِبَعْضِهِم: إِنَّ نَصْرَانِيًّا قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ لا غَيْرُ، مَا يَجِبُ لَهُ وعَلَيْهِ؟ قَالَ: يُؤْخَذُ مِنْهُ نِصْفُ الجِزْيَةِ، ويُؤْمَرُ بأَدَاءِ نِصْفِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ مِنَ الْفَرَائِضِ والسُّنَنِ، وإِنْ مَاتَ دُفِنَ بَيْنَ مَقَابِرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ كَمَا**

(١)الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه-٢٠١١م، ١٤٢-١٤٣.

(٢)يعرفها عبد السلام عشير بالمغالطة الانفعالية قائلا: "نوع من الحجاج يسعى إلى التأكيد على مشاعر الجمهور وذلك بأن يستثير إشفاقه أو خشيته... وهو بهذا يوجه البناء الحجاجي نحو الحقل الانفعالي الذي يضم المشاعر والأحاسيس والعواطف الداخلية، كأن يستدر مشاعر التضامن لدرجة يتنازل فيها المخاطب عن أغلى ما عنده، فيكون بذلك نوعا خاصا من الحجاج يصيب ما لم تصبه الحجج الأخرى المبنية على حقائق موضوعية". عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية لآليات التواصل والحجاج: عبد السلام عشيري، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦م، ١٦٩.

قَالَ تَعَالَى:﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، **فَهُوَ مِنَ الْمُذَبْذَبِيْنَ**(١).

لا يشير الحوار إلى المسئول عن الحماقة والجنون؛ فالسائل يوجه سؤلا يغلب عليه السخرية أو ربما عدم المعرفة؛ لكن الإجابة تؤكد على سخرية المجيب من كلام السائل رغم كونها تحمل حِجاجًا مُغالِطًا. فالمقدمات المحمولة في سؤال المتكلم تشير إلى علة أو حجاج فاسد؛ وبالتالي جاءت النتائج ترد على المقدمات الفاسدة بحجج فاسدة. وظف المتكلم **مغالطة العلة الفاسدة** أو أخذ ما ليس بعلة على أنه علة: تحدث هذه المغالطة عندما يحاول المغالط إثبات ما يريد الاستدلال عليه برده إلى علة ليست هي علته الحقيقية، ففي القياس البرهاني لابد أن يكون الحد الأوسط علة لثبوت الأكبر والأصغر، ووجود المناسبة بين النتيجة والمقدمات، وضرورية المقدمات، فإن اختلت هذه الأمور ونحوها بأن يظن أن الحد الأوسط علَّة لثبوت الأكبر للأصغر، أو يظن المناسبة بين النتيجة والمقدمات، أو لأنها ضرورية، وليست هي في الواقع كذلك كما ظن، فإن كل ذلك يكون من باب وضع ما ليس بعلة علة، ويكون جعل القياس المؤلف على حسبها برهانا مغالطة(٢).

فإذا كان المتكلم يفترض أن نصرانيا سيأخذ نصف الدين بالإيمان بالله دون الإيمان بالرسول المبلغ لهذا الدين؛ فكان الجواب أن نعتبره (نصف ذمي)، يفرض عليه نصف ما يفرض على الذمي الكامل، فيؤخذ منه نصف الجزية، ونصف الفرائص والسنن، وعند موته يدفن بين مدافن اليهود أو النصاري، ويؤكد المجيب كلامه بالاستشهاد بالقرآن الكريم لزيادة إيهام المخاطب وإقناعه بصحة كلامه وصدقه. جاءت مقدمات القياس مغالطة فكانت النتائج مغالطة للسخرية والتهكم من السائل.

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٤١. التذكرة الحمدونية: ابن حمدون، تحقيق: إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ٤٥٥/٩. سورة النساء: ١٤٣.
(٢)المغالطات في القياس المنطقي عند الإمام الغزالي، ١٠٩٤.

إِنْ مَاتَ دُفِنَ بَيْنَ مَقَابِرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى	علة فاسدة
ويُؤْمَرُ بأَدَاءِ نِصْفِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ مِنَ الْفَرَائِضِ والسُّنَنِ	علة فاسدة
يُؤْخَذُ مِنْهُ نِصْفُ الجِزْيَةِ	علة فاسدة
إِنَّ نَصْرَانِيًّا قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ لا غَيْرُ، مَا يَجِبُ لَهُ وعَلَيْهِ	مقدمة مغالطة

شكل (١٢) مغالطة العلة الفاسدة أو أخذ ما ليس بعلة على أنه علة بين مجنون وعاقل

وتزخر كتب النوادر بهذا الصنف الحجاجي المغالطي الذي يلجأ فيه المتكلم إلى تأويل النصوص الدينية وفق الهوى، وتعمد التحامق والتغافل؛ لإيهام المخاطب أو الجمهور بصدق المحتوى القضوي، ومنها: **أن "شُعَيْباً العَلَائِيَّ كَانَ لا يَصُوْمُ ولا يُصَلِّي، ويَقُولُ: مَنْ أَنَا حَتَّى أَصُوْمَ وَأُصَلِّيَ، إِنَّمَا يُصَلِّي الْمُتَكَبِّرُونَ الَّذِيْنَ أُرِيْدَ مِنْهُمُ التَّوَاضُعُ، ويَصُوْمُ الشِّبَاعُ حَتَّى يَعْرِفُوا قَدْرَ مَا فِيْهِ الْجِيَاعُ**[١]. ومنها: **ما حُكِيَ "أَنَّ الرُّسْتُمِيَّ كَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ مِنَ التُّجَارِ، فَحَضَرَتِ الصَّلاةُ، فَنَهَضَ لِيُصَلِّيَ فَنَهَضُوا مَعَهُ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ ولهذا؟ وما أَنتُمْ مِنْهُ؟ الصَّلاةُ رُكُوعٌ وسُجُودٌ، وقِيَامٌ وقُعُودٌ، وإِنَّما فَرَضَ اللَّهُ هذا عَلَى الْمُتَجَبْرِينَ وَالْمُتَكَبْرِيْنَ وَالْمُلُوكِ الأَعاجِمِ مِثْلِي وَمِثْلِ ذِي الْأَوْتَادِ ونُمْرُوْذَ وَأَنُوْشِرْوَانَ، ولَسْتُمْ مِنْ هَؤُلاءِ، فَمَا لَكُمْ وَلَهَا؟**[٢].

فالمتكلم يريد خداع المخاطبين بأن الصلاة لم تفرض إلا على المتكبرين والمتجبرين؛ لإجبارهم على الخضوع والتواضع لله، وكذلك الصوم لم يفرض إلا على الشِّباع والأغنياء حتى يعرفوا قدر ما فيه الجياع، ومعولًا على التأويل ومغالطة العلة الفاسدة؛ فالمقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة بالتبعية.

وتعد **(المغالطات اللغوية)** القائمة على التلاعب بالأساليب والتراكيب اللغوية بالتقديم والتأخير والذكر والحذف من أبرز المغالطات الحجاجية البارزة عند عقلاء المجانين كافة؛ لتمكنهم من ناصية اللغة وقدرتهم على الخداع والمرواغة والحجاج الجامع بين الحكمة والطرافة والنقد اللاذع دون الوقوع تحت طائلة القانون والعقاب. وتتجلى المغالطة اللغوية في محاورة إبراهيم الشيباني لبهلول المجنون عندما كان جالسًا يأكل

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٤٠.
(٢)المرجع السابق، ٥٤٠.

خبيصا فقال له: "أَطْعِمَني. قال: ليس هو لي، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة، بعثته إلي لأكله لها"(١).

فبهلول المجنون كان يحسن التصرف والتخلص من المواقف المُحْرِجَةِ التي يقع فيها؛ فها هو ذا يركن إلى المغالطة اللغوية القائمة على التلاعب بالتراكيب والأساليب اللغوية لإيهام المخاطب بخلاف مقاصده، فعندما طلب منه السائل إطعامه من الطعام الذي يأكل منه لجأ بهلول إلى النفي والإنكار قائلا: (ليس هو لي) مُقدِّمًا ضمير الغائب العائد على الطعام ليكون أول ما يواجه المخاطب عند النفي، ثم ذكر اسم من أرسل له الطعام (عاتكة بنت الخليفة) لكونها ذات صيت وسمعة، لكنه لجأ إلى المغالطة مرة أخرى (بعثته إليَّ لأكله لها). فالتلاعب بالتراكيب والأساليب اللغوية أوجد المغالطة التي مكَّنت بهلول من رفض إطعام الرجل من الطعام بذكاء دون التصريح بهذا الرفض. فالمغالطة اللغوية حيلة ذكية يلجأ لها الخاطب للتعبير عن المقاصد الحقيقة للخطاب بطريقة تبتعد عن التصريح وتميل إلى التلطف. فالمغالطة اللغوية تحمل قوتين إنجازيتين مباشرة وغير مباشرة: أما المباشرة فتتمثل في الرفض بلطف بينما تتمثل غير المباشرة في المراوغة والخداع وإلهاء المخاطب عن الموضوع الأصلي/ طلب الإطعام من الأكل الذي يتناوله.

وقد يلجأ عقلاء المجانين إلى **مغالطة التقسيم في توزيع الكل إلى الأجزاء والفروع المُكوِّنَة له أو المُنْدَرِجة تحته**، فثمة مغالطة منطقية صُوريَّة تجسد البون الشاسع بين الصلة والموضوع. ويبرز ذلك في حوار بهلول حين "**سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ مِنَ الْفَرَائِضِ: وهِيَ رَجُلٌ مَاتَ، وخَلَّفَ اَبْنًا وبنتًا وزَوْجَةً، ولَمْ يَتْرُكُ مِنَ الْمَالِ شَيْئًا، فَقَالَ: لِلابْنِ اليُتْمُ، وَلِلْبِنْتِ النِّكْلُ، وللزَّوْجَةِ خَرَابُ الْبَيْتِ، وما بَقِيَ مِنَ الهَمْ فللعَصَبَةِ**"(٢). فالسؤال عن الفرائض يتطلب إجابة بأدلة قطعيَّة الثبوت من القرآن والسنة النبوية بيد أن المجنون عمد إلى المغالطة وتغيير مسار الحديث؛ لتسليط الضوء على تدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع وقتذاك. فالكل هنا هو (الفرائض) ثم يندرج تحتها الأجزاء المكونة لها أو المندرجة تحتها؛ لكن المفاجأة كانت في مغالطة التقسيم ذات الصبغة الناقدة المجسدة

(١)العقد الفريد، ١٦٦/٧.
(٢)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٥.

لحال الفقراء الذين يموت عائلهم، ولا تنظر لهم الدولة (للابْنِ اليُتْمُ)، (وَلِلْبِنْتِ التَّكْلُ)، (وللزَّوْجَةِ خَرَابُ الْبَيْتِ)، (وما بَقِيَ مِنَ الهَمْ فللعَصَبَةِ).

ثالثًا: الجواب المُسْكِت

قد يرغب المتكلم في إنهاء الحوار مع المخاطب بطريقة حاسمة سريعة خاطفة إفحامية، فيلجأ إلى توظيف (الجواب المُسْكِت) الذي يراد به "مجموعة من الأجوبة الحاذقة الذكية، يرد بها المسئول على من يسأله؛ ليفحمه بالجواب المُسْكِت"(١)، فتوظيف عقلاء المجانين الجواب المُسْكِت يؤدي لدحض الدعوى الكلامية وإفحام المخاطب وإجباره على السكوت والانسحاب من الحوار والامتناع عن المعارضة. وقد يمعن المجادل في المغالطة؛ ولكن ليس برده على ذلك الجواب المُسْكِت بل بإثارة اعتراض مغاير وما ذلك إلا تهربًا من سكوته، فالسكوت اعتراف ضمني بالعجز.

تعدُّ دعوى المحاور الأول في الأجوبة المُسْكِتة دعوى استفزازية تخلق من السامع خصمًا ونِدًّا قويًّا ينتفض ليبادل عنف المتحدث اللغوي بعنف لغوي مضاد. والنظر في أغلب محاورات الأجوبة المُسْكِتة يلوح منها أنها تصدر في معظمها من مواقف انفعالية وتكون سريعةً وقصيرةً وسبب قصرها يعود لطابعها الانفعالي، وتلك السمة يؤكدها (فان دايك Van Dijk) بقوله: "فإذا تبرمنا أو كنا نافدي الصبر فإننا ربما نصوغ جملاً أقصر مما هو معتاد أو مما هو في مواقف كالمحاضرة مثلا"(٢). فللجواب المُسْكِت وظيفتان: الأولى تكمن في الوظيفة الحجاجية القائمة على الدعوى والدحض، والوظيفة التعبيرية(٣) التي تمكن المجيب من التعبير عن مشاعره وانفعالاته. فالجواب المُسْكِت رد فعل تجاه عنيف تجاه استفزاز المخاطب.

يرتكز الجواب المُسْكِت عند عقلاء المجانين على (الاستفهام الحجاجي) بما يحمله من مدلالات إعلامية طلبية وحجاجية. فالسؤال من منظور التحليل الحجاجي "نقطة

(١)الأجوبة المُسْكِتة: ابن أبي عون، دراسة وتحقيق: مي أحمد يوسف، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ٣٧.

(٢)علم النص مدخل متداخل الاختصاصات: تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ه- ٢٠٠١م، ١٦٢.

(٣)النظرية الألسنية عند جاكبسون دراسة ونصوص: فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣ه-١٩٩٣م، ٦٦.

خلاف نتيجة التعبير عن وجهات نظر متباينة في نفس الغرض، وإعادة النظر شرط ضروري لإقامة الحجاج"[١]. فالسائل يتوقع أن تكون الإجابة بالإيجاب عن سؤاله بيد أن المخاطب تكون إجابته غير متوقعة أو سلبية؛ فتحدث المفاجأة للسائل؛ فيتحول مسار الحجاج إلى وجهة مغايرة، ويلوذ السائل بالصمت. ويبرز ذلك من حوار بهلول مع هارون الرشيد حين **"قَالَ لَهُ الرَّشِيْدُ يَوْمًا: مَنْ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: مَنْ أَشْبَعَ بَطْنِي. قَالَ: إِنِّي أُشْبِعُك، فَهَلْ تُحِبُّني؟ قَالَ لَهُ: الحُبُّ لَا يَكُونُ بِالنَّسِيئَةِ**[٢].

فالمتكلم/ (هارون الرشيد) يوظف الاستفهام عند محاورة المخاطب/ (بهلول المجنون) بوصفه أداة حجاجية تداولية تحمل مدلولالات إقناعية لا إخبارية تغلق الباب على المخاطب أمام تعدد الإجابات؛ ومن ثم يوجه المخاطب إلى إجابة ما يريد إقناعه بها أو التأثير على المخاطب ليجيب بها على سؤاله؛ فالحجاج يبحث عن "بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مُكوِّنًا أساسيًّا لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية ما"[٣]. فهارون الرشيد يسأل بهلولًا عن من أحب الناس إليه؟ ويتوقع أن تكون إجابة المجنون: أنت يا مولاي أحب الناس إليّ، بيد أن المجنون يلجأ للمراوغة والخداع فيخبر الخليفة بأن أحب الناس إليه من يطعمه الطعام. فيلجأ المتكلم إلى التعويل على أسلوب التوكيد مستعملًا (إن) المضافة إلى ياء المتكلم متبوعة بأسلوب الاستفهام (هل تحبني؟) لإقناع المخاطب والتأثير عليه.

لم يجد المخاطب/ (بهلول) مفرًّا للهروب من هذا المأزق إلا باللجوء إلى الجواب المُسْكِت (الحب لا يكون بالنسيئة) الذي يرتكز في بنيته على أسلوب النفي الذي يضمن للمتكلم السلامة من بطش الخليفة دون التصريح بعدم حبِّ هارون الرشيد؛ فـ"النفي وسيلة صرفية تركيبية تستخدمها اللغات الطبيعية للدلالة على قسط لغوي عام يمكن الاصطلاح على تسميته بفعل الاعتراض"[٤]. فالنفي فعل لغوي إنجازي يتضمن التعبير عن فعل

(١)معجم تحليل الخطاب، ٤٦٧.
(٢)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٦.
(٣)نظرية الحجاج في اللغة: شكري المبخوت، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، (د.ط)، (د.ت) ٣٥٢.
(٤)الوظيفة والبنية مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية: أحمد المتوكل، منشورات، عكاف، (د.ط) ١٩٨٨م، ١٠١.

الاعتراض والدحض، ومن ثم عوَّل بهلول عليه لمراوغة هارون الرشيد؛ فالجواب يتضمن قوتين إنجاريتين هما:

١- القوة الإنجازية المباشرة: إن الحب لا يكون بالنسيئة التي تعد "من البيوع التي نهى الإسلام عنها، وهو بيعٌ إلى أجل معلوم من غير تقابض ولو كان بغير زيادة، وهو خلاف ربا الفضل"(١).

٢- القوة الإنجازرية غير المباشرة: إخفاء عدم حبه لهارون الرشيد؛ فالنفي "الإخبار عن ترك الفعل"(٢).

الحُبُّ لَا يَكُونُ بِالنَّسِيئَةِ	جواب مُسْكِت
إِنِّي أُشْبِعُك، فَهَلْ تُحِبُّنِي؟	تأكيد واستفهام للتأثير والتوجيه
مَنْ أَشْبَعَ بَطْنِي.	جواب مراوغ
مَنْ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟	استفهام للتأثير والتوجيه

شكل (١٣) الجواب المُسْكِت بين هارون الرشيد/ المتكلم وبهلول/ المخاطب

وفي الجواب المُسْكِت يكون المخاطب عالمًا بالجواب؛ ومن ثم تنبني على مخالفة الاستفهام لطلب الجواب مخالفة للمقام الحواري؛ وبناءً على ذلك تتولد معانٍ جديدةٌ مستلزمة حواريًّا تتناسب ومقام إنجازها. فأغلب المعاني المستلزمة حواريًّا عن الاستفهام ستتولد نتيجة خرق قاعدة العلاقة Maxim of relevance بين المقام والمقال، فضلًا عن خرق قاعدة الطريقة Maxim of manner التي توجب على المتكلم صياغة مقاصده بطريقة صريحة ممثلة في المعنى الحرفي لجواب المُجيب، بيد أن الحادث يُغايِر طبيعة جواب الاستفهام؛ فتتولد المعاني غير المباشرة المستلزمة عن المتكلمين؛ فجوهر الاستفهام يكون طلبًا للجواب(٣)، فـ"من جزع من الاستبهام فزع إلى الاستفهام"(٤).

(١)معجم اللغة العربية المعاصر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ه-٢٠٠٨م، مادة (نسأ)، ٢١٩٩.
(٢)كتاب التعريفات، ٣١٥
(٣) ينظر: الخلاصة النحوية: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م، ١٤٢.
(٤)البلاغة الاصطلاحية: عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٢ه- ١٩٩٢م، ١٦٠.

ينجلي ذلك من خلال حيلة "ديسيموس الموسوس" حيث "**أنه كان كلما خرج من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات للغائط والطهور، ألقى في أصل باب داره وفي دُوارته حجراً، كي لا ينصفق الباب، فيحتاج إلى معالجة فتحه، وإلى دفعه كلما رجع من حاجته، فكان كلما رجع لم يجد الحجر في موضعه، ووجد الباب منصفقاً. فكمن له في بعض الأيام ليرى هذا الذى يصنع ما يصنع. فبينما هو في انتظاره إذ أقبل رجل حتى تناول الحجر، فلما نحاه عن مكانه انصفق الباب، فقال له: مالك ولهذا الحجر؟ ومالك تأخذه؟ فقال: لم أعلم أنه لك. قال: فقد علمت أنه ليس لك!**"[1].

فالمتكلم (ديسيموس) أقام حواره مع المخاطب (لص عاقل) موظفًا الاستفهام مرتين (مالك ولهذا الحجر؟)، (مالك تأخذه؟). ولا يمكن تأويل هذا الاستفهام على أن السائل يطلب جوابًا؛ فالمتكلم ضبط اللص مُتلبِّسًا يحاول سرقة مقتنيات منزله؛ بل أراد إقامة الحجة عليه. وعند تحليل هذا الحوار وفق آلية الاستلزام الحواري يتضح أن الاستفهام يحمل قوتين إنجازيتين تصيران المقام من طلب الجواب إلى الإنكار الممزوج بإثبات الحجة؛ مما يعني خرق قاعدة العلاقة Maxim of relevance وخرق قاعدة الطريقة Maxim of manner. وتستلزم عن الحوار قوتان إنجازيتان هما:

١- القوة الإنجازية المباشرة: طلب الجواب الذي هو جوهر الاستفهام، فالاتصال الكلامي يكون حوارًا بين مستفهم ومجيب؛ وجملة الاستفهام جملة طلبية، وهذا هو المعنى الحرفي المراد.

٢- القوة الإنجازية غير المباشرة: التعجب والإنكار لصنيع اللص معولًا على الجواب المُسْكِت الذي يمنع المخاطب من المراوغة؛ فالمتكلم (ديسيموس) يغلق الباب على المخاطب من خلال الحِجاج المنطقي (فقد علمت أنه ليس لك) ردًّا على الحجاج المُغالِط للص (لم أعلم أنه لك)؛ لحمل اللص للاعتراف بأنه لص، وإقامة الحجة عليه.

(١)البيان والتبيين، ٢٢٧/٢. الحيوان، ٢٩٠.

فقد علمت أنه ليس لك!	جواب مسكت
لم أعلم أنه لك	مغالطة مراوغة
ومالك تأخذه؟	استفهام لطلب الجواب
مالك ولهذا الحجر؟	استفهام لطلب الجواب

شكل (١٤) الجواب المُسْكِت بين ديسيموس الموسوس/ المتكلم ولص/ المخاطب

ويكشف الاستفهام عن المعاني الضمنية الكامنة في الخطابات الحوارية؛ فحكي عن "ابن الجصاص الموسوس" **"أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْفُرَاتِ يُحَدِّثُهُ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ سَاه تَارَةً يَنْعَسُ، وتَارَةٌ يَبْهَتُ، فَقَالَ لَهُ: كَمْ ذَا السَّهْرُ والنُّعَاسُ؟ فقال: يا سَيِّدِي عِندَنَا فِي الْمَحَلَّةِ كِلَابُ لا تَدَعُنَا نَنَامُ مِنْ كَثْرَةِ صِيَاحِهَا وَهِرَاشِهَا. فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْفُرَاتِ: لِمَ لا تَأْمُرُ عَبَيْدَكَ تَضْرِبُها؛ فَإِنِّي أَحْسَبُها جِرَاءً. فَقَالَ: لا تَقُلْ ذُلِكَ أَيُّهَا الْوَزِيْرُ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَلْبٍ مِنْهَا مِثْلِي وَمِثْلُكَ**[(١)].

يدور الحوار الكلامي بين "ابن الجصاص الموسوس" (ت: ٣٢٠هـ)[(٢)] والوزير "علي بن الفرات"[(٣)]، ويكشف الحوار حالة النقم والغضب الكامنة في نفس "ابن الجصاص" تجاه "ابن الفرات"؛ فابن الجصاص كان أحد تجار الجواهر والذهب، وقد نكب في زمن الخليفة "المقتدر"، وكان "ابن الفرات" وزير الخليفة "المقتدر" الذي صادر أموال "ابن الجصاص". ومن ثم تبرز دلالات عدم الاهتمام والضيق من وجود الزائر/ (ابن الفرات) غير المرغوب فيه في بيت (ابن الجصاص) (غافل عنه ساه، تارة ينعس، وتارة يبهت)، فالاعتماد على الفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرارية دلالة على فتور المقابلة.

واستعمل المتكلمون عددًا من الأساليب التي أبرزت تلك المعاني، وكان الاستفهام بنية أساسية في هذا الحوار غير الحميم بين الطرفين، فلجأ "ابن الفرات" إليه (كم ذا السهر والنعاس؟)؛ لإخفاء عدم اكتراث "ابن الجصاص" بقدومه بإدعاء الغافلة والنعاس والسهو،

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٣٨.

(٢)الحسين بن عبد الله، أبو عبد الله ابن الجصاص الجوهري، كان من أعيان تجار الجواهر، ونُكِبَ في أيام الخليفة المقتدر، وكان مغفلا، وتوفي بعد العشرين والثلثمائة. فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، ٣٧٢/١- ٣٧٦.

(٣)أبو الحسن علي بن أبي جعفر محمد بن موسى بن الحسن ابن الفرات، تولى أمر الدواوين زمن المكتفي، وممهد حكم الخليفة المقتدر. سير أعلام النبلاء: الذهبي، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٧ه-١٩٩٦م،١٢٨/١٩- ١٢٩. أو ٤٧٤/١٤-٤٧٨.

فلجأ المتكلم (ابن الجصاص) إلى توظيف النداء الذي يعدُّ في جوهره خطابًا مُوجَّهًا من متكلم إلى مخاطب يحمل دلالة قصدية إدراكية موجهة، فالنداء فعل كلامي، فهو ليس مقصودًا بالذات؛ لأنه لا يقتصر على الفعل القولي فقط، إنما يحمل قوة إنجازية وتأثيرًا في المخاطب(١). فالمتكلم/ (ابن الجصاص) يريد التأكد من انتباه المخاطب/ (ابن الفرات) إذعانًا بالهجوم عليه، فناداه (يا سيدي)؛ "لأن (يا) لطلب الإقبال لسماع النهي، والنهي عن الإقبال بعد التوجه"(٢). ثم علل سهوه عنه بأن الكلاب لا تدعه ينام من كثرة نباحها.

ولجأ المخاطب/ (ابن الفرات) إلى الاستفهام عندما جاء دوره للرد على كلام "ابن الجصاص" (لِمَ لا تَأْمُرُ عَبَيْدَكَ تَضْرِبُها) ثم يتبعه بأسلوب التعليل والتبرير (فَإِنِّي أَحْسَبُها جِرَاءً)؛ "فابن الفرات" لا يصدق أن يكون سبب الغفلة والسهو عن قدومه معللًا أنها جراء صغيرة. فأفحم "ابن الجصاص الموسوس"/ (المتكلم) ابن الفرات/ (المخاطب) بالجواب المُسْكِت: (لا تَقُلْ ذُلِكَ أَيُّهَا الْوَزِيْرُ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَلْبٍ مِنْهَا مِثْلِي وَمِثْلُكَ)، موظفا أسلوب النهي الذي يعد من التراكيب الطلبية بقصد توبيخ المخاطب؛ ويؤكد هذا التوبيخ من خلال التعليل والتبرير(فَإِنَّ كُلَّ كَلْبٍ مِنْهَا مِثْلِي وَمِثْلُكَ). والملاحظ أن الإشاريات الشخصية التداولية (عندنا، لا تدعنا، عبيدك، تضربها، مثلي، مثلك) لعبت دورًا جوهريًّا في تأكيد المعاني والدلالات التداولية بين الطرفين. فالحوار كشف عن قوتين إنجازيتين هما:

١- القوة الإنجازية المباشرة: التعليل بأن عدم الاكتراث بقدوم الوزير كان سببه ارتفاع أصوات الكلاب التي منعته النوم جيدًا.

٢- القوة الإنجازية غير المباشرة: التوبيخ والكره للوزير "ابن الفرات"؛ لكونه من المقربين من الخليفة "المقتدر" الذي صادر أمواله، فوصفه بالكلب للتوبيخ والذم والسخرية منه.

(١)ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: أحمد المتوكل، دار الثقافة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م، ١٦١.

(٢)حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: الصبان، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ١٩٧/٣.

فَإِنَّ كُلَّ كَلْبٍ مِنْهَا مِثْلِي وَمِثْلُكَ	جواب مُسْكِت للتوبيخ
لا تَقُلْ ذُلِكَ أَيُّهَا الْوَزِيْرُ	نهي للتوبيخ
لِمَ لا تَأْمُرُ عَبَيْدَكَ تَضْرِبُها؛ فَإِنِّي أَحْسَبُها جِرَاءً	استفهام إنكاري
يا سَيِّدِي عِندَنَا فِي الْمَحَلَّةِ كِلَابُ لا تَدَعُنَا تَنَامُ مِنْ كَثْرَةِ صِيَاحِهَا	تعليل مُغلَّف بالتوبيخ
كَمْ ذَا السَّهْرُ والنُّعَاسُ؟	استفهام إنكاري

شكل (١٥) الجواب المُسْكِت ابن الجصاص الموسوس/ المتكلم وابن الفرات وزير الخليفة المقتدر/ المخاطب

ويستمر عقلاء المجانين في توظيف الاستفهام لنقد أوضاع المجتمع والسخرية والتهكم من أفعال العقلاء؛ فقد "**وُلِدَ لِإِسْحَقَ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّبَاح بنْتُ، فَسَاءَه ذلِكَ، وَامْتَنَعَ مِنَ الطَّعَامِ والشَّرَابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بُهْلُولُ وقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ ما هذا الْجَزَعُ والْحُزْنُ؟ جَزِعْتَ لخَلْقٍ سَوِيٍّ، وَهَبَهُ الْمَلِكُ الْعَلِيُّ، أَيَسُرُّك أَنْ يَكُوْنَ مَكَانَهَا ابْنُ وَأَنَّهُ مِثْلي؟ فضَحِكَ الْأَمِيرُ ودَعَا بِالطَّعَامِ والشَّرَابِ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ للهَنَاءِ**"(١).

فالحوار يكشف عن ثنائية حوارية ضدية جامعة بين الأمير/ (العاقل) الذي بدت عليه حالة الحزن والكآبة؛ لأنه رزق ببنت، وبهلول/ (العاقل المجنون) الذي حاول إقناعه بالرضا بأمر الله، وعدم القنوط والغضب من إنجاب أنثى. وأقام بهلول حواره على الاستفهام (ما هذا الْجَزَعُ والْحُزْنُ؟/ أَيَسُرُّك أَنْ يَكُوْنَ مَكَانَهَا ابْنُ وَأَنَّهُ مِثْلي)، فالمتكلم/ (بهلول) لا يريد الإجابة عن السؤال من المخاطب، إنما حاول توظيف الأبعاد التداولية الحجاجية للسؤال بإخراجه من إطار طلب الجواب إلى إطار التوجيه للسيطرة على ذهن المخاطب وإقناعه بالرضا وعدم القنوط، ويحاول توبيخه بطريقة غير مباشرة. ونجح بهلول في تحقيق ذلك من خلال أسلوب الاستفهام حيث (ضَحِكَ الْأَمِيرُ، ودَعَا بِالطَّعَامِ والشَّرَابِ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ للهَنَاءِ). ويتضمن السؤال في الحوار قوتين إنجازيتين تتمثلان في:

٣- القوة الإنجازية المباشرة: التسلية للصبر والرضا على إنجاب الأنثى.

٤- القوة الإنجازية غير المباشرة: التوبيخ والاستهزاء والتهكم من اعتراضه على

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٤.

عطاء الله بإنجاب الأنثى العاقلة الرشيدة التي لا تشبهه في الجنون والحمق.

فضَحِكَ الْأَمِيرُ ودَعَا بِالطَّعَامِ والشَّرَابِ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ للهَنَاءِ	نجاح الحجاج
أَيَسُرُّك أَنْ يَكُوْنَ مَكَانَهَا ابْنُ وَأَنَّهُ مِثْلي	جواب مُسْكِت لتغيير حال المتلقي وإذعانه بالرضا
جَزِعْتَ لخَلْقٍ سَوِيٍّ، وَهَبَهُ الْمَلِكُ الْعَلِيُّ	توبيخ
أَيُّهَا الْأَمِيرُ ما هذا الْجَزَعُ والْحُزْنُ؟	استفهام إنكاري لاستمالة المتلقي
وُلِدَ لِإِسْحَقَ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّبَاح بنْتُ، فَسَاءَه ذلِكَ، واَمْتَنَعَ مِنَ الطَّعَامِ	قضية منطقية كبرى

شكل (١٦) الجواب المُسْكِت بهلول المجنون/ المتكلم والأمير إسحاق بن محمد الصباح/ المخاطب

وتشكل ثنائية الإثبات والنفي أساس الجواب المُسْكِت في الحوارات الخطابية عند عقلاء المجانين، فأغلب الأفعال الإنجازية الجارية على ألسنتهم والأفعال غير القولية المتضمنة في فعل القول لتلك الأفعال تهدف إلى تحقيق مقاصدهم الكلامية، وتصدر "عن اعتقاد يقين لدى المتكلم في أن محتوى قوله مطابق لحالة الأشياء في الكون"(١). فأغلب الأفعال الإثباتية انفعالية ناتجة عن حالة التبرم والحنق من المخاطب، والرغبة في إنهاء الحوار وإفحام المخاطب بالحجة المُسْكِتة لأقواله. ويبرز ذلك عندما "**مر ابن أبي علقمة بمجلس بنى ناجية، فكبا حماره لوجهه فضحكوا منه، فقال: ما يضحككم؟ رأى وجوه قريش فسجد!**(٢). فالرد السريع الحاسم المفاجيء المفحم كان حاضرًا على لسان "ابن أبي علقمة" كرد فعل على السخرية والاستهزاء الحادث من الجالسين في مجلس "بني ناجية". ووظف المتكلم أسلوب الاستفهام الإنكاري؛ للتأكيد على معنى السخرية فضلًا عن التعويل على الروابط الحجاجية التي تعد مؤشرات لغوية خاصة تؤدي إلى الترابط والتلاحم بين

(١)دائرة الأعمال اللغوية مراجعات ومقترحات: شكري المبخوت، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ١٨٤.
(٢)البيان والتبيين، ٥/٤.

المقدمات والنتائج، وتنظيم بنية النص وتناسق وحداته وصولًا إلى وحدة كلية تفضي مقدماتها أو حججها إلى نتائجها، ومن ثم وظف الرابط الحجاجي (الفاء) الذي يفيد التعقيب والسببية(١)؛ مما زاد في إفحام المخاطبين وإسكاتهم.

فالأفعال الإثباتية أكثر نجاعة في تحقيق الإفحام والإقناع؛ لكونها "تؤكد وجهات نظر المتجادلين أو اعتراضاتهم، وتعرض حججهم ومواقفهم"(٢). ويتجلي جانب السخرية والتهكم في الجواب المُسْكِت الصادر على لسان "ديسيموس موسوس اليونان" **حين "قال له قائل: ما بال ديسيموس علَّم الناسَ الشعر ولا يستطيع قوله؟ قال: مثله مثل المِسَنِّ الذى يَشْحَذ ولا يقطع**(٣). فالمتكلم جمع بين الشيء ونقيضه حين أراد مخاطبه السخرية والتهكم من كونه لا يجيد الشعر رغم أنه يُعلِّم الناس الشعر، فكان الجواب المُسْكِتُ المرتكز على التشبيه الذي يجلي الفارق الدلالي في ذهن المخاطب (مثله مثل المِسَنِّ الذى يَشْحَذ ولا يقطع)؛ ويقتضي كلام "ديسيموس" أن الشعر ملكة وجدانية لا يمتلكها كل إنسان؛ بقصد التهكم والسخرية من السؤال الإنكاري للسائل.

وتعد الأفعال الإثباتية أوسعُ الأفعال الكلامية انتشارًا في خطابات عقلاء المجانين لتعدد أغراضها التداولية، فمرة تفصح الأفعال عن اعتقادات المخاطب ومرة ثانية تنحو منحى إعلاميا، ومرة ثالثة تأتي لإفادة المخاطب بإحاطة المنشيء بمضمون الخبر؛ أي لازم الفائدة، ومرة للتشكيك وأخرى للإقناع أو للتوقع(٤). ويبرز ذلك على ألسنة عقلاء المجانين عند حديثهم حول تأكيد حقيقة جنونهم وماهيته، والتأكيد على أن السبب في جنونهم راجع إلى الابتلاء الرَّبَّاني لهم أو للهروب من ظلم المجتمع والحكام أو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **ومنها قول "ابن أبي فديك": "رَأَيْتُ عُلَيَّانَ قَدْ دَلَّى رِجْلَيْهِ فِي قَبْرِهِ، وهُوَ يَلْعَبُ بالتُّرَابِ؛ فَقُلْتُ لَهُ: ما تَصْنَعُ ها هُنَا؟ قَالَ: أَجَالِسُ أَقْوَاماً لا يُؤْذُونَنِي إِنْ حَضَرْتُ، وَلَا يَغْتَابُوْنَنِي إِنْ غِبْتُ. فقُلْتُ: قَدْ غَلَا السِّعْرُ، فهَلَّا تَدْعُو اللَّهَ، فَيَكْشِفَ عَنَّا**

(١)مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٥م، ١٨١/١-١٨٢.

(٢)النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية: محمد طروس، دار الثقافة والنشر، المغرب، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ١٤٤.

(٣)البيان والتبيين، ٢٢٦/٢.

(٤)دائرة الأعمال اللغوية مراجعات ومقترحات، ١٨٥-١٨٦.

الضُّرَّ؟ فقَالَ: والله لا أُبَالِي ولَوْ حَبَّةٌ بِدِينَارٍ؛ إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ عَلَيْنَا الْعَهْدَ أَنْ نَعْبُدَهُ كَمَا أَمَرَ، وَأَنَّ عَلَيْهِ رِزْقَنَا كَمَا وَعَدَ؛ ثُمَّ صَفَّقَ بِيَدَيْهِ، وَقَامَ قَائِلًا:

يا مَنْ تَمَتَّعُ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِها ولا تَنَامُ عَنِ اللَّذَاتِ عَيْنَاهُ

شَغَلْتَ نَفْسَكَ فِيْمَا لَيْسَ تُدْرِكُهُ تَقُوْلُ لله مَاذَا حِيْنَ تَلْقَاهُ (١)

فثنائية الإثبات والنهي شكلت وحدة لغوية جوهرية تؤكد استحضار الصورة في الأذهان من خلال الجمع بين النقيضين: الأحياء الذين يؤذون المجانين بالأقوال والأفعال والتصرفات، والأموات المسالمين البعيدين عن الغيبة والنميمة (أَجَالِسُ أَقْوَاماً لا يُؤْذُونَنِي إِنْ حَضَرْتُ، وَلَا يَغْتَابُوْنَنِي إِنْ غِبْتُ). ويزداد نقد المجنون لكلام العقلاء حين سأله المتكلم (فهَلَّا تَدْعُو اللَّهَ، فَيَكْشِفَ عَنَّا الضُّرَّ؟). فلجأ المتكلم/ (المجنون) إلى تفسير الفعل الإثباتي والتعقيب عليه، فالفعل الإثباتي "قد يتبعه تفسير أو إضافة معنى زائد كما يتبع الإثبات تصحيحًا أو خيارًا أو بديلًا أو قد يعقبه حكم مثبت إنكارًا أو تناقضًا"(٢). فمقتضى كلام المجنون التسليم والقضاء بأمر الله بينما النقم والحنق لسان حال العاقل.

ويعد الشرط أحد الأساليب الخطابية التي يعتمد عليها عقلاءالمجانين في مخاطبة العقلاء؛ إذ يمتلك قيمة حجاجية كبيرة تسهم في إقناع المتلقي بما يقدمه –المتكلم– من حجج، فالعلاقة بين تركيب فعل الشرط وجوابه قوامها التلازم والتكامل، فجملة الشرط تمثل سببًا وعلة لوقوع الجواب، فضلا عن الدور البارز الذي تلعبه أداة الشرط في الربط الدلالي والمنطقي؛ إذ تقدم الحجة والتدعيم للوصول إلى النتيجة والجزاء. فالجانب التداولي للجملة الشرطية في السياقات الكلامية يبرز حجاجية أسلوب الشرط الذي قد يكون مقدما لحجج أو نتائج، أو قد يكون احتياطًا أو تحفُّظًا على نتيجة حجاجية، كما قد يرد الحجاج في التراكيب الشرطية المضمرة، والتي تتضح من خلالها العلاقة المنطقية المتلازمة بين طرفين؛ إذ يلزم ثبوت التالي ثبوت المتقدم.

ويتوافق أسلوب الشرط مع مبدأ التعاون ومُسلَّماته في الحوار، فأسلوب الشرط منضبط كميّا، فالمتكلم يقول الكلام الضروري؛ وأسلوب الشرط لا يتحمَّل أن يزاد عليه أكثر

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٥٨.

(٢)النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، ٢٠٠٠، ٢٨٥.

من الضروري. ويتوافق الشرط مع قاعدة الكيف التي تقتضي أن يكون الكلام صادقًا[١]، وأسلوب الشرط عبارة عن مقدمات/ (فعل الشرط) تقود إلى نتائج أو جزاء/ (جواب الشرط)، فمن السهل البرهنة على صدق أسلوب الشرط بين المتكلمين. أما من حيث الملاءمة فأساليب الشرط لا تجري إلا في موقف أو سياق يحدد مناسبتها، كما أن السياق الذي تجري فيه يقتضي وجود أشخاص مشاركين في الحدث الكلامي. ويتفق أسلوب الشرط مع مبدأ الجهة عند "جرايس Grice" الذي يقتضي خلو الكلام من اللبس والإبهام، وأساليب الشرط واضحة لا إبهام فيها ولا غموض، ومنها ما ورد عن حال "عليان المجنون" عندما **"رَآهُ رَجُلٌ وهو يَأْكُلُ تَمْرًا في السُّوْقِ، فقَالَ لَهُ: يا عُلَيَّانُ أَتَأْكُلُ فِي السُّوْقِ؟ قَالَ: مَنْ جَاعَ فِي السُّوْقِ أَكَلَ فِي السُّوْقِ!**[٢]. ويكاد يتكرر الموقف ذاته مع "ديسيموس" حين **"رآه رجل وهو يأكل في السُّوق فقال: ما بال "ديسيموس" يأكل في السوق؟ فقال: إذا جاع في السوق أكل في السوق**[٣].

مَنْ	جَاعَ فِي السُّوْق	أَكَلَ فِي السُّوْق	إذا	جاع في السوق	أكل في السوق
أداة الشرط	فعل الشرط	جواب الشرط	أداة الشرط	فعل الشرط	جواب الشرط
العاقل	ثبوت الدلالة	ثبوت الدلالة	الاستقبال	ثبوت الدلالة	ثبوت الدلالة
جواب مُسْكِت			**جواب مُسْكِت**		

شكل (١٧) توظيف أسلوب الشرط في الجواب المُسْكِت

لعبت أدوات الشرط دورًا فعالًا في مراعاة أحوال المخاطبين في التركيب الشرطى؛ فـ(إذا) تفيد الثبوتَ والقطعَ، فـ"أصلُ "إذا" أن تدخلَ على الأمورِ التي لابد من حصولها[٤]"، ولعل ذلك ما يفسِّرُ ملازمة الفعل الماضى لها؛ لكونه أدل على الوقوعِ والحدوثِ. فالمتكلم عندما يوجِّه كلامه إلى المخاطَب يحاول استعمال أداة الشرط المتوافقة مع حالتِه النفسية أو العقلية مُتدرِّجًا من حالة المُخاطَب خالى الذهنِ إلى المُترددِ الشاك وصولًا إلى المُنْكرِ

(١)ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢٣٨.
(٢)المرجع السابق، ٣١٨.
(٣)البيان والتبيين، ٢٢٦/٢.
(٤)أمالى ابن الحاجب: أبو عمرو بن الحاجب، دراسة وتحقيق: فخر صالح سليمان قدارة، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ط) ١٨٥/١.

الرافضِ لقبولِ المحتوى القضوي المعروضِ بواسطةِ التركيب الشرطي.

فالسؤال المُوجَّه من المتكلم العاقل (أَتَأْكُلُ فِي السُّوْقِ؟) أو (ما بال ديسيموس يأكل في السوق؟) يتضمن قوة إنجازية مباشرة تتمثل في السؤال عن الكيفية أو السبب، بينما القوة الإنجازية غير المباشرة تكمن في الاستنكار والتعجب من الإقدام على الفعل المُشين المتمثل في الأكل في السوق. من ثم عمد المتكلم/ (العاقل المجنون) إلى تضافر القرائن لتحقيق الإقناع والتأثير في المخاطب بدءً من توظيف الأداة المناسبة ثم التعويل على الفعل الماضي قطعي الثبوت؛ لترسيخ المعنى في ذهن المخاطب وإقناعه وفق المنطق العقلي بأن الجوع/ (مقدمة) السبب في الأكل في السوق/ (نتيجة).

يشكل أسلوب الشرط أحد أبرز المؤشرات الأسلوبية التركيبية اللغوية الدالة على سياقية الموقف الكلامي المؤثرة في مخاطب لتحقيق الإقناع والاستمالة في الجواب المُسْكِت على ألسنة عقلاء المجانين، ويتضافر مع أسلوب النداء لتحقيق أقصى درجات الإقناع والاستمالة يمكن تحقيقها في المخاطبين مع عقلاء المجانين. ويبرز ذلك حين "**قَالَ بَعْضُهم: رَأَيْتُ مَجْنُونَيْنِ يَتَنَازَعَانِ رَغِيْفاً يُؤْثِرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُما صَاحِبَهُ بِهِ، وهُمَا يَتَقَاسَمَانِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُما وَأَنَا أَظُنُّ أَنِّي أَرْبَحُ عَلَيْهِما: أَنَا أَكُلُهُ إِنْ لَمْ تَأْكُلاهُ. فَقَالَ أَحَدُهما: يا أَحْمَقُ إِنَّ مَعَه أُدْماً لا يَسُوْغُ إِلَّا بِهِ. قُلْتُ: وما هُوَ؟ قَالَ: ضِيْقُ الخَنْقِ، وَوَجْءُ الْعُنُقِ! فَوَلَّيْتُ عَنْهما. فَقَالا: يا مَجْنُونُ لَوْلا غَضَاضَةُ الأُدْمِ لَأَكَلْنَاهُ مُنْذُ حِيْنٍ**"[1]

فالشرط والنداء والاستفهام شكَّلوا سيمفونية خطابية كاشفة عن الأبعاد النفسية الحقيقية للمتكلمين؛ فالمتكلم/ (عاقل مجنون) يريد توبيخ المخاطب/ (عاقل)؛ فعوَّل على النداء متمثلا في أداة النداء (يا) للتنبيه والتأكد من يقظة المخاطب، ثم استعمل المنادى/ (أحمق) لتوبيخ المخاطب. فالفعل الكلامي في النداء ثابت؛ لكونه من الأفعال الكلامية الإنجازية أو التأثيرية الهادفة إلى طلب إقبال المنادى عن طريق مناداته؛ فالقوة الإنجازية لأسلوب النداء تختزل في قدرته التنبيهية العالية الصائتة المتناسبة مع ما يليها من مضمون النداء. ثم يعلل المتكلم/ (عاقل مجنون) للمخاطب/ (العاقل) السبب في النزاع والتشاجر بينهما بأن (مَعَه أُدْماً لا يَسُوْغُ إِلَّا بِهِ)، وهذا ضرب من المغالطة لاستدراج

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣٢٢. جمع الجواهر في الملح والنوادر، ١٦٤.

المخاطب وإمعانا في التوبيخ والاستهزاء منه؛ فالأدم كان (ضِيْقُ الخَلْقِ، وَوَجْهُ الْعُنُقِ). ثم يختتم كلامه لزيادة توبيخ المخاطب بالتعويل على أسلوب الشرط المبدوء بـ (لولا) الذي يفيد امتناع الوجود (لَوْلا غَضَاضَةُ الأُدْمِ لَأَكَلْنَاهُ مُنْذُ حِيْنِ)، ويزاد معنى التوبيخ بكون جواب الشرط الامتناعي (لولا) جملة فعلية فعلها ماض مثبت، وفي هذه الحالة إذا جاء جواب الشرط مثبتا يكون اقتران الجملة باللام أكثر من عدم اقترانها بها(١).

وفي ضوء نظرية المناسبة والصلة فيمكن أن يُعد تأويل تلك الأجوبة المُسْكِتة مصداقا للملاءمة القوية التي لا تستدعي مجهوداً تأويليًّا. فالذهن سرعان ما تمثَّل الإجابة وفسَّرها وتفاعل معها جسديًّا عن طريق فقدان بريق الوجه وإشراقه؛ إذ "كلما قلَّ الجهد المعرفي المبذول في معالجة الملفوظ ازدادت درجة ملاءمة هذا الملفوظ، وكلما استدعى التعامل مع ملفوظ ما جهدًا كبيرًا كانت ملاءمته ضعيفة"(٢). ويبرز ذلك في الأجوبة المُسْكِتَة التي وظفها عقلاء المجانين مع مخاطبيهم؛ فنتيجة المحاورة تظهر فورية على وجه المخاطب مثلما حدث على وجه المأمون حين وُصِفَ له "**عليان المجنون**"، "**فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ، فَلَمَّا مَثَّلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ازْدَرَاهُ، وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يَجْلِسَ فِي مَجْلِسِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: عُلَيَّانُ ، فَضَحِكَ مِنْه. فَقَالَ عُلَيَّانُ:** ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، **فَهَابَهُ الْمَأْمُوْنُ وعَظُمَ فِي عَيْنِهِ بِهَا**"(٣). وتتجلى براعة "عليان المجنون" في توظيف الجواب المُسْكِت المتوافق مع السياق الموقفي؛ "**فالمأمون**" حاول الاستهزاء "بعليان المجنون" في مجلسه؛ فكانت رد عليان المفاجيء المستشهد بالآية القرآنية الكريمة المرتكزة على أسلوب الشرط المبدوء بالأداة (إن) التي تفيد الشكَّ والظنَّ والتوقُّعَ"(٤). "فعليان" كان يتوقع الاستهزاء فمزج بين التراكيب اللغوية والسياق ليتمكن من إحراج الخليفة، ويظهر ذلك من (فَهَابَهُ الْمَأْمُوْنُ وعَظُمَ فِي عَيْنِهِ بِهَا).

ويتجلى الامتزاج بين نظرية المناسبة والصلة في الأجوبة المُسْكِتة في خطابات

(١)ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ٢٨٧/١-٢٨٩.
(٢)في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: مسعود صحراوي، ضمن كتاب "التداوليات علم استعمال اللغة"، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ٥١.
(٣)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٧. سورة هود، ٣٨-٣٩.
(٤)ينظر: شرح الرضى على الكافية: رضى الدين الاستراباذى، منشورات جامعة قان يونس، بنغازى، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م، ٨٧/٤.

عقلاء المجانين على لسان "**جُعَيْفِرَانُ**" الذي كان "**يُمَاشِي رَجُلًا ، فَدَفَعَهُ الرَّجُلُ عَلَى كَلْب. فَقَالَ لَهُ: ما هذا؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَقْرِنَكَ بِهِ. قَالَ: فَمَعَ مَنْ أَنَا مُنْذُ الْغَدَاةِ؟**"[١]. فالاستفهام التقريري على لسان "جُعَيْفِرَانُ المجنون" يهدف إلى إشراك المخاطب في إنتاج الجواب؛ لإلزامه بالحجة والبرهان، فبمجرد نطق المخاطب (أَرَدْتُ أَنْ أَقْرِنَكَ بِهِ) كان الجواب المُسْكِت من المجنون (فَمَعَ مَنْ أَنَا مُنْذُ الْغَدَاةِ؟)، وهو استفهام إنكاري لا يتطلب جوابًا، فالقوة الإنجازية في الاستفهام الإنكاري تتخطى القوة المباشرة في طلب الجواب إلى الكشف عن القوة الإنجازية غير المباشرة الكامنة في الاستهزاء وقصف جبهة المستهزيء "بجعيفران المجنون".

وتبرز براعة عقلاء المجانين في المزج بين الموقف السياقي والأجوبة المُسْكِتة حين "**تَغَدَّى أَبُو السَّرَايَا عِنْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ وَلِيُّ عَهْدِ أَبِيهِ، فَقَدَّمَ أَمَامَهُ جَدْياً، وقَالَ: كُلِّ مِنْ كُلْيَتِهِ، فَإِنَّهَا تَزِيْدُ في الدماغ. فَقَالَ: لَوْ كَانَ كَمَا يَقُولُ الْأَمِيرُ لَكَانَ رَأْسُهُ مِثْلَ رَأْسِ الْبَغْلِ**".[٢] فسليمان بن عبد الملك/ (المتكلم) أراد السخرية والاستهزاء من المجنون؛ فكان الرد المفاجيء بالجواب المُسْكِت الموظف لأسلوب الشرط المبدوء بالأداة (لو) التي تأتي "لإفادةِ الامتناع واستحالة وقوع الشرط وتحققِه[٣]. فالمجنون لا يريد المعنى المباشر من وراء توظيف (لو) الشرطية في الجواب المُسْكِت المتمثل في تفنيد كلام المتكلم بقدر ما يركز على القوة الإنجازية غير المباشرة للمعاني الضمنية الكامنة في السخرية والاستهزاء من كلام المتكلم الذي حاول الاستهزاء به.

ولا تكاد تتوقف أهداف عقلاء المجانين في إحراج مخاطبيهم بتوظيف الجواب المُسْكِت عند مرتبة إدارية أو سياسية محددة، ويبرز ذلك من الخبر الذي أورده "الجاحظ" حين "**قيل للمثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، وهو على اليمامة: إنّ ها هنا مجنوناً له نوادر. فأتوه به فقال: ما هجاء النشاش؟ فقال: الفَلَج العادِيُّ؛ فغضب ابن هبيرة وقال: ما جئتموني به إلّا عمداً، ما هذا بمجنون. والنشاش: يوم كان لقيس على حنيفة،**

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٤.
(٢)المرجع السابق، ٥٣٨.
(٣)معانى الحروف: أبو الحسن الرمانى، تحقيق: عرفان بن سليم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م، ١٠٠.

والفَلَج: يوم كان لحنيفة على قيس"[١].

فرواية الخبر تشير إلى أن الهدف من مجيء المجنون يكمن في التسلية والتَّندُّر عليه وعلى أفعاله (إنّ ها هنا مجنونًا له نوادر. فأتوه به)، يبد أن المفاجأة الحجاجية الحوارية شكلت الصدمة للمخاطب حين اعتمد على السؤال المبدوء بـ (ما هجاء النشاش؟) طمعًا في الوقوف على إجابة؛ لكن المجنون عمد إلى قصف جبهة المخاطب حين عيَّره قائلا: (الفلج العادي)؛ فغاظته تلك الإجابة؛ لأن الفلج يوم لحنيفة على قيس. بذلك عيَّر المجنون الوالي وذكره بهزيمة قومه.

ويتضمن الجواب المُسْكِت على استفهام "ابن هبيرة" قوتين إنجازيتين: القوة الإنجازية المباشرة المتمثلة في طلب الجواب، وهي قوة ثانوية أولية لا تمثل القوة الإنجازية الحقيقة الكامنة في التعريض والمعايرة بالوالي بتذكيره بهزائم بقبيلته، وهذه هي القوة الإنجازية غير المباشرة التي تمثل لُبَّ المحاورة، والمقصد الحقيقي من الجواب المُسْكِت. وقد نجح المجنون في تحقيق مقاصده فلم يستطع معاقبة المجنون؛ بل قنع بلوم الذين استقدموا له المجنون للتسلية والمرح قائلا: (ما جئتموني به إلّا عمدًا، ما هذا بمجنون).

وكانت الجوابات المُسْكِتة على ألسنة عقلاء المجانين حاضرة في الخطابات الدينية، وكاشفة عن معتقدات المخاطبين مثلما حدث لبهلول الذي كان "**يتشيَّع فقيل له يومًا: أيما أفضل أبوبكر أم على رضى الله عنهما؟ فقال له: أما وأنا في كندة فعليٌّ، وأما وأنا في ضبَّة فأبو بكر. وكندة بالكوفة من غُلاة الرافضة وبنو ضبة أهل سنة**"[٢]. وفي الحقيقة إن هذه الإجابات لا يمكن أن تصدر عن مجنون؛ بل صادرة عن ذات واعية مُدركِة للأقوال الصادرة عنها. وساهمت التراكيب اللغوية المرتكزة على أسلوب الشرط والجواب المُسْكِت في كشف المعاني والدلالات الضمنية الحقيقية من وراء جوابات بهلول؛ فالجنون في الحوار كان ادعاء للتقية والخوف من الإيذاء والاضطهاد؛ فالمجنون يعرف أماكن تجمع أهل السنة والشيعة؛ فيظهر تشيُّعه أمام أهل مذهبه، ويخفي ذلك أمام أهل

(١)البيان والتبيين، ٢/ ٢٣٣.

(٢)جمع الجواهر في الملح والنوادر، ١٦٣. غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٦. ويبرز ذلك الجانب أيضا في محاورات بهلول وجعيفران المتشيعين حين قيل لهما: اشتُم فاطمة وأعطيك درهماً! فقال: بل أشتم عائشة وأعطني نصف درهم. ينظر: العقد الفريد، ١٦٦/٧. غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٢.

السنة في لحظة كاشفة عن اتخاذ الجنون قناعًا للتقية والهروب من الاضطهاد والإيذاء.

ثالثا: السلم الحجاجي Argumentative scale

يرسمُ عقلاء المجانين لأنفسِهم استراتيجيات خطابية مدروسة؛ لضمان نجاعة التأثيرِ والإقناعِ للذواتِ المتحاورةِ في العمليةِ التخاطبيةِ. فالحجج والبراهين المؤثرة في المخاطبين لا ترد بطريقةٍ عشوائيةٍ اعتباطيةٍ على ألسنة عقلاء المجانين؛ بل تتمُّ بطريقةٍ مقصودةٍ تعتمدُ على التدرجِ والترتيبِ في إيرادِ الحججِ قصد تحريك عقول المخاطبين ومشاعرهم، فلا يجد المخاطب مفرًا لاستضعاف الحجج الواردة في المحاورة. وينطلقُ الحجاجُ من قاعدةٍ أساسيةٍ تتمثَّلُ في إيرادِ سلسلة من المتوآليات الجُمليَّةِ والأقوالِ في تراكيبٍ لغويةٍ مفيدةٍ، يكون بعضها بمنزلة المقدمات المُمهِّدة للمخاطبين نفسيًّا وعقليًّا، ويظهر بعضها الآخر في شكلِ نتائجَ مُستلزمة عن تلك المقدماتِ. فالحجاجِ يمثل "العملية التي من خلالها يسعى المتكلمُ إلى تغييرِ نظامِ المعتقداتِ، والتصوراتِ لدى مُخاطبه بواسطةِ الوسائلِ اللغويةِ"[١].

ويصوغُ المتكلمُ الحججَ في قالب لغوى يتناسبُ مع الحالةِ النفسيةِ للمخاطبين وفق السياقاتِ الكلاميةِ للخطابِ؛ فيلجأُ إلى استعمالِ أكثر من مقدمةٍ، كما أنه قد يطوي منها ما يَعْلمُ أن المخاطبَ مُحيطٌ به، أو مشاركٌ له في معرفتِه، وقد يغيِّرُ ترتيبَ حجَّته؛ فيبدأُ بذكرِ النتيجةِ، ثم يأخذُ في الاحتجاجِ. ويطلق على العلاقة التي تضطلع بتنظيم الأقوال وترتيبها تبعًا إلى مدى ضعفها وقوتها وتفاوتها وتدرجها في الإفضاء إلى نتيجة معينة واحدة اسم (السلم الحجاجي **Argumentative scale**)، فالحجج التي تنتمي لفئة حجاجية واحدة هي تلك الحجج التي تخدم نتيجة واحدة وتتسق شكليًّا في الخطاب في صورة السلم بوساطة الروابط وقد تستغني عنها تعويلاً على قرائن ما، فكل قول يتوزع في السلم يكون القول الذي يعلوه هو أكثر قوة في الإقناع[٢]. ويُعرِّفَه العالمَ الفرنسى ديكرو (Ducrot) بقوله: "نُسمِّي القسم الحجاجي الذي يقوم على علاقةٍ تراتبيةٍ سُلَّما حجاجيًّا، واختصاره هو "س. ح"

---

(1)C. Plantin: Essai sur L'argumentation, Ed, Kim, Paris, 1990, p. 191.

(٢) ينظر: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية: محمد طروس، دار الثقافة والنشر، المغرب، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦ه- ٢٠٠٥م، ١٠٦. اللغة الحجاج، ٢٠-٢١.

(E.A)[١]. فالمتكلمُ عندما "يُوجِّهُ علاقةَ ترتيب أو قوةَ العناصرِ الموجودةِ داخل قسم حجاجي سنقول إن الحججَ تنتمي إلى سلم حجاجي واحد"[٢]. وقد استخدم ديكرو Ducrot" رسم السهم (↑) المُتجة الرأس إلى أعلى لبيانِ قوة الحججِ وضعفها لدى المتكلمين.

فالحججُ تظهرُ في الخطابِ الحواري وفق شكل سُلَّمي من أسفل إلى أعلى، يورد المتكلم الحججِ المُسلَّمِ بها في قاعدةِ السهمِ، ثم يشرعُ في تقويةِ هذه الحجة بحججٍ أخرى أشد تأثيرًا على المخاطبِ مراعيًا حالته النفسيةِ من حيث تقبُّل هذه الحجة أو رفضها. ولابد أن تستوفي الحججُ الواردةُ في السلمِ الحجاجي شرطين هما[٣]:

١-كلُ قولٍ يقعُ في مرتبةٍ ما من السلمِ يلزمُ عنه ما يقعُ تحته، بحيث تلزم عن القولِ الموجودِ في الطرفِ الأعلى جميع الأقوالِ التي دونه.

٢-كلُ قولٍ كان في السلمِ دليلًا على مدلولٍ معينٍ، كان ما يعلوه مرتبةً دليلا أقوى عليه.

فالسلمُ الحجاجي سلسلةِ المقدماتِ الهادفةِ إلى تأكيدِ النتيجةِ النهائيةِ التي يريدُ المتكلمُ إيصالها للمخاطبِ. ويُعدُّ السلمُ الحجاجي الآليةَ الأساسيةَ التي يعتمدُ عليها المُحاججُ في الخطابِ. ويتفقُ ذلك مع طبيعةِ. ووفقًا لذلك يمكن القول بأنَّ السلمَ الحجاجي يمتازُ بعدةِ خصائص منها: التراتبية بين المقدمات والنتائج، وتدرج القوة الإنجازية ونسبيتها وفق الحالة النفسية للمخاطب ومدى تأثير الحجج فيه وصولا إلى التوجيه للاعتقاد بفكرة ما والاقتناع بها.

وتفنن عقلاء المجانين في إيراد الحجج والبراهين بطريقة فريدة مكنتهم من إيصال أصواتهم المعارضة والناقمة على الأحوال السياسية والدينية والاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي وقتذاك، ومنها: "حُكِيَ أَنَّ "ثُمَامَةَ بْنَ أَشْرَسَ" قَالَ: بَعَثَنِي "الرَّشِيْدُ" إِلَى دَارِ الْمَجَانِيْنِ لأُصْلِحَ مَا فَسَدَ مِنْ حَالِهم، فرَأَيْتُ فِيْهِم شَابًا حَسَنَ الزِّيّ؛ كَأَنَّهُ صَحِيحُ الْعَقْلِ، فَقَالَ لِي: يا "ثُمَامَةُ" إِنَّكَ تَقُولُ: إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَنْفَكُ مِنْ نِعْمَةٍ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا، أَوْ بَلِيَّةٌ يَجِبُ الصَّبْرُ لَدَيْها، وأَنْتَ تُبِيحُ الْمَطْبُوخَ، أَرَأَيْتَ لَوْ سَكِرْتَ، ونِمْتَ، وقَامَ إِلَيْكَ غُلامُكَ، وأَوْلَجَ فِيْكَ

(1)Les Echelles Argumentatives, p. 18.

(٢)القاموسُ الموسوعي للتداوليةِ، ٢٩٨.

(٣)اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢٧٧.

مِثْلَ ذِرَاعِ الْبَكْرِ، فَقُلْ لِي: أَهْذِهِ نِعْمَةٌ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا، أَمْ بَلِيَّةٌ يَجِبُ الصَّبْرُ لَدَيْها؟(١)

قَالَ ثُمَامَةٌ: فَلَمْ أَدْرِ بِمَاذَا أُجِيْبُهُ

فقَالَ: مَسْأَلَةٌ

قُلْتُ: ما هِيَ؟

قَالَ: مَتَى يَجِدُ النَّائِمُ لَذَّةَ النَّوْم؟ إِنْ قُلْتَ في حَالِ نَوْمِهِ فَمُحَالٌ ، وإِنْ قُلْتَ إِذَا اسْتَيْقَظَ فَبَعِيْدٌ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ شَيْءٍ أَنْقَضَىٰ وَمَضَىٰ

فَبُهِتُ لا أُحِيْرُ جَوَابًا

فَقَالَ: مَسْأَلَةٌ أُخْرَى

قُلْتُ: وما هِيَ؟

قَالَ: إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ نَذِيْراً ، فَمَا نَذِيْرُ الكِلَابِ؟

قُلْتُ: لا أَدْرِي

فقَالَ: أَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ الأُوْلَى فَيَجِبُ أَنْ تَقُولَ: النَّعَمُ ثَلَاثَةٌ: نِعْمَةٌ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْها، وبَلِيَّةٌ يَجِبُ الصَّبْرُ لَدَيْها، وبَلِيَّةٌ يَجِبُ الصَّبْرُ عَنْهَا فهَذِهِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ، وهِيَ الْبَلِيَّةُ الَّتِي يَجِبُ الصَّبْرُ عَنْهَا.

وأَمَّا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فَالْجَوَابُ عَنْها أَنَّها مُحَالٌ؛ لأَنَّ النَّوْمَ دَاءٌ ولا لَذَّةَ مَعَ وُجُوْدِ الدَّاءِ

وأَمَّا الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: – وَأَخْرَجَ مِنْ كُمِّهِ حَجَراً – فَقَالَ: إِذَا عَدَا عَلَيْكَ كَلْبٌ فهذا نَذِيرُهُ. ورَمَانِي بِالْحَجَرِ فَأَخْطَأَني، وأَصَابَ الأُسْطُوَانَةَ. فلَمَّا رَآهُ قَدْ أَخْطَأَني قَالَ: فَإِنَّكَ النَّذِيْرُ يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ الْحَقِيْرُ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ، وأَنَّ عَقْلَهُ مُصَابٌ، فتَرَكْتُهُ، وانْصَرَفْتُ، وقَنِعْتُ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ.

يصور الحوار الخلاف السياسي والفكري الذي كان سائدًا في المجتمع الإسلامي وقتذاك؛ فالحوار يدور بين ثمامة ابن أشرس/ (المخاطب) "البصري المتكلم من رؤوس

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٩.

المعتزلة القائلين بخلق القرآن"[١] وأحد عقلاء المجانين/ (المتكلم) في دار المجانين الذي بادره بالسؤال عن بعض الآراء والمسائل التي يؤمن بها ثمامة بن الأشرس المعتزلي الفكر، فيوجه لها السؤال تلو الآخر بطريقة تعجيزية تمنعه من الإجابة والرد على كلام هذا العاقل المجنون. ولجأ المتكلم إلى التدرج في إيراد الحجج المفحمة للمخاطب وفق السلم الحجاجي الآتي:

السلم	الحوار	المتحاوران	النتيجة
	قُلْتُ: لا أَدْرِي	المخاطب/ عاقل	عدم رد/ إفحام
	قَالَ: إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ نَذِيْراً، فَمَا نَذِيْرُ الكِلَابِ؟	المتكلم/ عاقل مجنون	السؤال
	فَبُهِتُ لا أُحِيْرُ جَوَاباً	المخاطب/ عاقل	عدم رد/ إفحام
	قَالَ: مَتَى يَجِدُ النَّائِمُ لَذَّةَ النَّوْم؟ إِنْ قُلْتَ في حَالِ نَوْمِهِ فَمُحَالٌ، وإِنْ قُلْتَ إِذَا اسْتَيْقَظَ فَبَعِيْدُ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ شَيْءٍ أَنْقَضَىٰ وَمَضَىٰ	المتكلم/ عاقل مجنون	السؤال
	قَالَ ثُمَامَةُ: فَلَمْ أَدْرِ بِمَاذَا أُجِيْبُهُ	المخاطب/ عاقل	عدم رد/ إفحام
	أَرَأَيْتَ لَوْ سَكِرْتَ، ونِمْتَ، وقَامَ إِلَيْكَ غُلامُكَ، وأَوْلَجَ فِيْكَ مِثْلَ ذِرَاعِ الْبَكْرِ، فَقُلْ لِي: أَهْذِهِ نِعْمَةٌ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا، أَمْ بَلِيَّةٌ يَجِبُ الصَّبْرُ لَدَيْها	المتكلم/ عاقل مجنون	السؤال
	يا ثُمَامَةُ إِنَّكَ تَقُولُ: إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَنْفَكُ مِنْ نِعْمَةٍ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا، أَوْ بَلِيَّةٌ يَجِبُ الصَّبْرُ لَدَيْها، وأَنْتَ تُبِيحُ الْمَطْبُوخَ.	المتكلم/ عاقل مجنون	مُقدِّمة مَنْطقيَّة

شكل (١٨) توظيف السلم الحجاجي بين أحد المجانين/ المتكلم، وثمامة بن أشرس/ المخاطب العاقل

(١)العلامة أبي معن النميري البصري المتكلم من رؤوس المعتزلة القائلين بخلق القرآن، وكان نديما طريفا صاحب ملح ونوادر اتصل بالرشيد ثم المأمون، تلميذه الجاحظ، وعدَّه المقريزي في رؤوساءالفرق الهالكة. سير أعلام النبلاء،١٠/ ٢٠٣-٢٠٦.

وشكَّل الاستفهام قوام الحوار الجامع بين متحاورين متناقضين هما: العاقل المجنون الذي ذهب إليه "ثمامة بن أشرس" في دار المجانين؛ لإصلاح ما فسد من حالهم، فالمجنون وجه مجموعة من الأسئلة التعجيزية للمخاطب العاقل. فالاستفهام واحد من أفعال الكلام الإنشائية التي تأتي مباشرة وغير مباشرة في الحوار، ويراد به الجمل والأقوال التي لا تصف واقعًا خارجيًّا، ولا يحتمل الصدق والكذب، وليس له محتوى إخباريًّا"[١]. فالاستفهام في خطابات عقلاء المجانين لا يمكن أن يقال عنه صادق (مطابق لواقع ما) أو كاذب (غير مطابق له) لكن مجرد النطق به يُشكِّلُ في حد ذاته فعلًا مُعيَّنًا. فالمتكلم/ (عاقل مجنون) يعول على الاستفهام لتوجيه المخاطب/ (العاقل) لإلزامه بالجواب الذي لا يقبل التأويل أو المراوغة، وقد نجحت إستراتيجية المتكلم حيث كانت إجابة العاقل: (فَلَمْ أَدْرِ بِمَاذَا أُجِيْبُهُ)، (فَبُهِتُ لا أُحِيْرُ جَوَاباً)، (لا أَدْرِي).

فالمحاورة قائمة على حجاجية الجواب المُسْكِت، ولا تهدف لتحصيل المعرفة بقدر الرغبة في إثبات جهل المخاطب وإلزامه بالحجة. ومن ثم فإن هذا النمط من المحاورة يشهد على الدوام تعجيزًا للمخاطب وإجباره على السكوت، فالحجاج منقطع على المستوى الأفقي؛ فالمسألة الحجاجية تنتهي بسرعة بمجرد عجز المخاطب عن الرد. بينما الحجاج متصل على المستوى الأفقي بانتقال المتكلم إلى مسألة أخرى يريد بها تعجيز المخاطب وإفحامه. وساعد الاستفهام على تحقيق (مبدأ التعاون)[٢] من خلال التزام المتكلم بموضوع السؤال ومناسبته وعدم الخروج عن المطلوب ووحدة الطريقة؛ مما أفضى إلى نتيجة مقنعة.

(١)اللغة والحجاج، ٤٦.

(٢)مبدأ التعاون هو مبدأ تداولي يراد منه أن يعبر المرسل عن قصده واضحا بلا فضول أو نقصان، فيراعي (الكم)، و(الكيف)، و(المناسبة)، (النوع والطريقة). ينظر:إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤٥م. ٩٦-٩٧.

شكل (١٩) تضافر السلم الحجاجي والجواب المُسْكِت بين أحد المجانين/ المتكلم، وثمامة بن أشرس/ المخاطب العاقل

وأدى تضافر الاستفهام والشرط إلى سلاسة السُّلَّميَّة الحجاجية؛ فالمتكلم يصرح بالسؤال الاستفهامي ثم يتبعه بالتركيب الشرطي الذي يغلق باب التأويل أو المراوغة على المخاطب، من ثم لا يجد المخاطب مفرًا سوى الإذعان والتسليم بالمحتويات القضوية المطروحة في الحوار، نحو:

قَالَ: مَتَى يَجِدُ النَّائِمُ لَذَّةَ النَّوْم؟	إِنْ قُلْتَ في حَالِ نَوْمِهِ فَمُحَالٌ	وإِنْ قُلْتَ إِذَا اسْتَيْقَظَ فَبَعِيْدُ أَنْ يَجِدَ لَذَّةَ شَيْءٍ أَنْقَضَى وَمَضَى
أسلوب استفهام	تركيب شرطي	تركيب شرطي

شكل (٢٠) تضافر الاستفهام والشرط في السلم الحجاجي بين أحد المجانين/ المتكلم، وثمامة بن أشرس/ المخاطب العاقل

ولعبت أدوات الشرط دورًا فعالًا في مراعاة أحوال المخاطبين وتحقيق الإذعان والتسليم؛ فـ (إن) تفيد الشكَّ والظنَّ والتوقُّعَ، وتستعمل في المعاني المُحْتملةِ أو لعدمِ القطعِ في الأشياءِ الجائزِ وقوعها أو عدم وقوعها"[(١)]، ولعل ذلك ما يفسِّرُ ملازمة الفعل الماضي لها لكونه أدل على الوقوعِ والحدوثِ. وتضمن الاستفهام والشرط في هذه المحاورة قوتين إنجازيتين هما: القوة الإنجازية المباشرة المتمثلة في طلب الإيضاح والبيان، وبينما القوة الإنجازية غير المباشرة تتمثل في التعجيز والإفحام وإحراج المخاطب وإثبات فساد أفكاره

(١)المقتضب: المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤١٥ه-١٩٩٤م، ٥٥/٢، وشرح المفصل: ابن يعيش، تقديم وفهرسة: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م، ١١٣/٥.

التي يحاول نشرها في المجتمع.

ويقيم عقلاء المجانين السلالم الحجاجية بطريقة مدروسة قائمة على تضافر القرائن اللغوية التي تتناسب مع طبيعة موضوع المحاورة؛ فيلجأ إلى الجمع بين سلسلة من العوامل الحجاجية لإفحام المخاطب وإلزامه الحجة المفحمة الدافعة إلى الإذعان والتسليم أو السكوت والانسحاب. ويتجلى ذلك عندما وظف مجنون البصرة المعروف بـ(رأس النعجة) النداء والاستفهام والنفي والقسم في محاورته لوالي الكوفة وقاضيها حيث يروى "ركب محمد بن سليمان والي الكوفة يومًا وإلى جانبه "القاضي سوار بن عبد الله" فاعترضهما مجنون اسمه "رأس النعجة" كان يدعي الجنون؛ لِيُتاح له التعبير عن رأيه، ونادى رأس النعجة والي الكوفة "قائلا: **يا محمد، أمن العدل أن تكون نحلتك في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟!! ثم التفت رأس النعجة إلي سوار القاضي وقال له: إن كان هذا عدلًا فأنا أكفر به، فأسرعت إليه الشرطة ليبطشوا به فكفهم عنه الوالي محمد بن سليمان وأعطاه مائة درهم، فمدح رأس النعجة الأمير ودعا له، فقال له سوار القاضي: يا خبيث ما كان هذا قولك في البداية، فالتفت إليه رأس النعجة وقال له: سألتك بحق الله وحق الأمير ألا أخبرتني في أية سورة هذه الآية** ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴿٥٨﴾﴾ **فقال القاضي في سورة براءة فقال له رأس النعجة: صدقت وبريء منك الله ورسوله؛ فضحك "محمد بن سليمان" حتي كاد يسقط**[1].

والي الكوفة		عاقل مجنون		القاضي
السلطة التنفيذية	← →	معارض	← →	السطة التشريعية

شكل (٢١) عناصر الحوار في السلم الحجاجي بين رأس النعجة المجنون/ المتكلم، ووالي الكوفة وقاضيها/ المخاطب

اتخذ العاقل من الجنون وسيلة للتعبير عن حالة المعارضة والرفض للظلم الاجتماعي التي كانت منتشرة في عصره دون التعرض للعقاب أو الأذى؛ فمجنون البصرة

(١)مروج الذهب: المسعودي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٨٦ه-١٩٦٦م، ٣٤٨/٣. والآية رقم (٥٨) من سورة التوبة.

المعروف بـ"رأس النعجة" يعترض طريق "محمد بن سليمان" والي الكوفة، ويسأله سؤال المحاجة والإحراج: "**أمن العدل أن تكون نحلتك في كل يوم مائة ألف درهم، وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟** لكونه الوالي صاحب السلطة التنفيذية في الخلافة، ثم يتوجه إلى القاضي "سوار بن عبد الله" المسئول عن السلطة التشريعية ليوبخه قائلا: "**إن كان هذا عدلًا فأنا أكفر به**".

وعندما وجد المجنون أنه سيتعرض للضرب والعقاب بدأ في إدعاء الجنون؛ ومدح الوالي والقاضي وأثنى عليهما، ثم بدأ القاضي في ملاطفة المجنون واستمالته للتخفيف من حدة النقد والمعارضة قائلا: **يا خبيث ما كان هذا قولك في البداية**؛ لكن المجنون يصمم على إيصال رسالته الناقدة الساخطة الساخرة للوالي للتأثير فيه وإقناعه، فعمد المجنون إلى إحراج القاضي قائلًا: بتغيير الموضوع بسؤال المجنون عن معني آية قرآنية قائلا: **سألتك بحق الله وحق الأمير ألا أخبرتني في أية في سورة هذه الآية** ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴿٥٨﴾﴾ فكانت إجابة القاضي مباشرة قائلًا: **في سورة براءة**؛ لكنه لا يدرك الأبعاد غير المباشرة الكامنة وراء سؤال المجنون؛ لذلك كان رد المجنون على القاضي صادمة حيث قال: **(صدقت، وبريء منك الله ورسوله)**. لقد نجح المجنون في إيصال رسالته إلى الوالي، وبرز ذلك من رد فعله على إحراج المجنون للقاضي المتمثل في **(فضحك "محمد بن سليمان" حتي كاد يسقط)**

فالمجنون يطرح قضية غاية الخطورة تتمثل في مسألة سوء توزيع الثروة وغياب العدالة الاجتماعية طرحاً صريحاً لا التواء فيه وصاغ موضوع العدالة الاجتماعية صياغة مباشرة تدل على وضوح فكري لا غبار عليه وجرأة أدبية لا تنكر لا سيما أنه احتكم إلى خصم مهيب الجانب لما اجتمع لديه من أسباب النفوذ والقوة.، فهو مسئول السلطة التنفيذية في الولاية. ثم يوجه إلى القاضي المسئول عن التشريع والأحكام؛ ليوبخه لكونه الناطق بمقولات التشريع النابعة من العقيدة والدين، فنفي وجود العدل وأعلن موقفه الرافض للأمر الواقع. وارتكز المجنون على السلالم الحجاجية في التدرج في إيراد الحجج والأدلة عند مخاطبة الوالي والقاضي على النحو الآتي:

السلم	الحوار	المتحاورون	النتيجة
	فضحك محمد بن سليمان حتي كاد يسقط	الوالي	نجاح الحجاج
	صدقت وبريء منك الله ورسوله	المجنون/ القاضي	سخرية وهزيمة
	في سورة براءة	القاضي/ المجنون	قوة إنجازية مباشرة
	سألتك بحق الله وحق الأمير ألا أخبرتني في أية في سورة هذه الآية ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴿٥٨﴾﴾	المجنون/ القاضي	استدراج للمخاطب شاهد قطعي الثبوت القرآن الكريم
	يا خبيث ما كان هذا قولك في البداية	القاضي/ المجنون	استمالة
	إن كان هذا عدلا فأنا أكفر به	المجنون/ القاضي	المعارضة والتوبيخ
	يا محمد، أمن العدل أن تكون نحلتك في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟!	المجنون/ الوالي	تنبيه سؤال محاجة استفهام استنكاري

شكل (٢٢) السلم الحجاجي بين رأس النعجة المجنون/ المتكلم، ووالي الكوفة وقاضيها/ المخاطب

ارتكز السلم الحجاجي على عدد من الآليات الوسائل الحجاجية التداولية الناشئة عن تضافر القرائن اللغوية؛ لضمان نجاعة الحجاج في المتلقي واستمالته بالمحتوى القضوي المعروض. ويأتي النداء في صدر هذه العوامل الحجاجية الورادة في هذا الحوار (يا محمد) و(يا خبيث)، ويلعب السياق دورًا جوهريًّا في تحديد المعنى الدقيق والقوة الإنجازية المقصودة من هذا التركيب اللغوي؛ فالمعنى المراد من النداء (يا محمد) محمود

يراد التنبيه والتأكد من خلو بال المتلقي وعدم تشتته لضمان سلامة سمعه وانتباهه قبل الشروع في تقديم المحتوى القضوي على مسامع المتلقي. بينما يحمل تركيب (يا خبيث) معنى الشتم والسَّب والسخرية من القاضي إلى المجنون (رأس النعجة) بعدما نجح في إحراج الوالي بالكلام وتوبيخ القاضي، فضلًا عن حصوله على عطيَّةٍ قدرها مائة درهم.

ثم يعمد المتكلم إلى توظيف أسلوب الاستفهام؛ لكونه من العوامل الحجاجية التي تحقق مباديء التداولية بطريقة فريدة؛ فالاستفهام يحقق الافتراض المسبق المتضمن في الخطابات الإنسانية نتيجة الموقفية والسياق الذي يحدده السؤال وما يقتضيه من إجابات المخاطب التي تحمل قوة إنجازية مباشرة سطحية وقوة إنجازية مباشرة عميقة كاشفة عن الأبعاد النفسية للمخاطب، من ثم انغماس السؤال في الاستلزمات الحوارية، فضلا عن تحقيق مباديء التعاون التداولية بطريقة فريدة.

ووظف عقلاء المجانين الاستفهام بشقيه: الإنكاري والتقريري في السلم الحجاجي وفق الحالة النفسية للمخاطب لضمان نجاعة الحجاج وإقناع المخاطب والتأثير فيه. فأتى الاستفهام الإنكاري في صدر كلام "رأس النعجة" قائلًا: **(يا محمد، أمن العدل أن تكون نحلتك في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟!)** لإخبار الوالي (السلطة التنفيذية) برفض واستنكار سوء توزيع الثروات وغياب العدالة الاجتماعية، ففي هذا السياق والموقف الحجاجي لا يحتاج السؤال والاستفهام الإنكاري لإجابة بل يتضمن معان ضمنية عدة تتمثل في الاعتراض والاحتجاج والتوبيخ والسخرية.

ويتضافر الاستفهام مع أسلوب الشرط لتكتمل آليات الحجاج والتأثير في المخاطب بالمحتوى القضوي محل المحاورة **(إن كان هذا عدلًا فأنا أكفر به)**، فالشرط يزيد من حدة الاعتراض والرفض، فتحقق المحتوى القضوي لفعل الشرط يترتب عليه تحقق المحتوى القضوي للجواب؛ من ثم يقتضي الكلام العاقل المجنون أنه يستحيل تحقيق العدالة والاجتماعية، ومن ثم يستحيل أن يرضخ لحكمهم ولا يعارضه. وساعد الشرط والاستفهام على إبراز الحجاج السياسي والاجتماعي بين الذوات المتحاورة؛ فالحجاج يتضمن الرفض لسوء توزيع مقدرات الدولة واحتكارها في عدد محدد من الأشخاص دون التوزيع العادل على أبناء المجتمع عامة.

ويلعب الاستفهام التقريري دورا حجاجيا بارزا، وأخص منه الاستفهام الذي يتضافر مع النفي، فيمضيان بالسلمية إلى غايتها، وهذا هو الأسلوب الاستفهامي الأكثر حجاجية في حجاج عقلاء المجانين، وغاية هذا النوع من الاستفهام حمل المخاطب على الإقرار بما يرده المتكلم، فيكون أدعى إلى إقامة الحجة عليه، **(فقال له سوار القاضي: يا خبيث ما كان هذا قولك في البداية، فالتفت إليه رأس النعجة وقال له: سألتك بحق الله وحق الأمير ألا أخبرتني في أية في سورة هذه الآية** ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴿٥٨﴾﴾، فالمتكلم لا يطلب إجابة عن سؤاله؛ بل يهدف إلى إلزام المخاطب على الذهاب في الاتجاه الذي يحدده له المتكلم، والسير في المنحى الحجاجي الذي رسمه له.

ونجح المجنون/ (رأس النعجة) في استدراج القاضي للإجابة عن هذا السؤال؛ ظنًّا منه عدم معرفة المتكلم بموضع الآية الكريمة قائلا: **(في سورة براءة)**، وكانت النتيجة هي مباغة رأس النعجة/ (عاقل مجنون) للقاضي/ (العاقل) بقوله: **(صدقت وبريء منك الله ورسوله)** إمعانًا في الرفض والاعتراض والسخرية من كلام القاضي. ويستلزم عن كلام رأس النعجة إلى القاضي قوتين إنجازيتين تتمثلان في:

١- القوة الإنجازية المباشرة المتمثلة في التظاهر بطلب الإجابة عن السؤال، وهي قوة سطحية غير مقصودة على وجه الحقيقة.

٢- القوة الإنجازية غير المباشرة التي تبرز فيها معان الاستدراج والسخرية من القاضي، وهي قوة صادقة مقصودة عمدية لإلزام المخاطب الحجة، ومن ثم نجاعة الحجج في التأثير في المخاطب.

وتتجلى براعة عقلاء المجانين في انتقاء الشواهد اللغوية التي تحمل بين طياتها المعاني الجامعة المانعة التي تحقق الغرض والحجاج بأقصر الطرق الممكنة. فرأس النعجة/(عاقل مجنون) وظف الآية الكريمة ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴿٥٨﴾﴾ عند مخاطبة القاضي الذي يحتكم إلى القرآن الكريم عند إصدار الفتاوى والأحكام. فالآية تتكلم عن توزيع الصدقات والأموال وتتفق مع السياق العام للحوار الهادف إلى تبصير الوالي بضرورة توزيع الثروات بعدالة؛ لضمان السمع والطاعة لأوامره،

"فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن أنت لم تعطهم منهم سخطوا عليك وعابوك"(١).

ولم يشذ عن هذا المنطق الذي غدا مألوفًا الحجاج الدائر بين "بهلول المجنون" و"هارون الرشيد" الذي يعد أعظم الخلفاء العباسيين وأكثرهم شهرة وذكرًا. يروى أنه و**"لَمَّا دَخَلَ الرَّشِيدُ الْكُوْفَةَ خَرَجَ النَّاسُ لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِ، فَنَادَاهُ بُهْلُولٌ: يا هَارُونُ – ثَلاثًا – فَقَالَ الرَّشِيدُ: مَنْ يَجْتَرِءُ عَلَيْنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟**

فقِيلَ لَهُ: بُهْلُولُ، فرَفَعَ طَرَفَ السَّجْفِ، وَقَالَ: ادْنُ

فقَالَ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ رَوَيْنا بِالإِسْنَادِ عَنْ قُدَامَةَ بْن عَبْدِ اللهِ الْعَامِرِي، قَالَ: « رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ لا ضَرْبَ ولا طَرْدَ، ولا قِيْلَ بَيْنَ يَدَيْهِ: إِلَيْكَ إِلَيْكَ. وتَوَاضُعُكَ في شَرَفِكَ هَذَا خَيْرٌ مِنْ تَجَبُّرِكَ وتَكَبُرِكَ. قَالَ: فبكى الرَّشِيدُ حَتَّى بَدَتْ دُمُوْعُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وقَالَ: أَحْسَنْتَ يَا بُهْلُوْلُ زِدْنا يَرْحَمْكَ اللَّهُ.

قَالَ: رَوَيْنا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّما رَجُلٍ أَتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَسُلْطَاناً وجَمَالاً فَأَنْفَقَ مِنْ مَالِهِ، وعَفَّ فِي جَمَالِهِ، وعَدَلَ في سُلْطَانِهِ، كُتِبَ فِي دِيْوَانِ اللَّهِ مِنَ الأَبْرَارِ» قَالَ الرَّشِيدُ: أَحْسَنْتَ يا بُهْلُولُ، وأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ.

فقَالَ: أَرْدُدْهَا عَلَى مَنْ أَخَذْتَهَا مِنْهُ، فَلا حَاجَةَ لِيْ بِهَا.

قَالَ: يا بُهْلُولُ إِنْ كَانَ عَلَيْكَ دَيْنٌ قَضَيْتُهُ عَنْكَ.

قَالَ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ إِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلَ الرَّأْيِ بِالكُوْفَةِ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ بِالدَّيْنِ لا يَجُوْزُ.

قَالَ: فَهَلْ لَكَ أَنْ أُجْرِيَ عَلَيْكَ رِزْقاً يَقُومُ بِكَ ويَكْفِيكَ ؟

فرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وقَالَ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنَا وَأَنْتَ عِيَالُ اللَّهِ ؛ ثُمَّ تَرَكَهُ ومَضَى(٢).

يقوم الحوار بين "بهلول" و"هارون الرشيد" على أساس الافتراض المسبق بين طرفي الحوار، فالمساحة الاجتماعية والشخصية بين المتحاورين سمحت لمجنون من العوام

(١)تفسير الطبري، ١٢٢/٤ سورة التوبة، ٥٨.
(٢)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٥٦٠. فيض الخاطر، ١٣٠/٢. جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ١٦٤.

بمحاورة الخليفة أمام أعين أهل الكوفة ومرافقيه، وتجرأ فيها المجنون على مناداة الخليفة باسمه مُجرَّدا من اللقب ثلاثًا أمام أعين الحضور. ويبرز الافتراض المسبق أن "هارون الرشيد" كان يعامل "بهلولا" معاملة العاقلين العلماء، بل كان في نظره أعقل العاقلين وأصدق الوعاظ وأحكم الحكماء، ولعل الخليفة سمح للمجنون بما لم يسمح لأحد قط.

يدور الحجاج حول توجيه النصح والإرشاد للخليفة؛ فمن الثابت أن "بهلولًا كان يستعمل الجنون سترًا على نفسه"(١)؛ ليتمكن من "نصيحته الخلفاء والأمراء بأقوى لفظ وأصرح بيان؛ فقد زهد في مالهم وجاههم، وأمنه جنونه أن ينالوا منه، ووثق بربه فلم يخف أحدًا؛ وله في هذا الباب نوادر رائعة وأقوال غالية(٢).

ويستلزم توجيه النصيحة والتوجيه في الخطاب الحواري التعويل على أسلوب النداء؛ لضمان إنصات المخاطب للكلام لتحقيق التأثير والاستمالة تجاه القضية المعروضة، ومن ثم تحقيق الإقناع ونجاح الحجاج. ويبرز ذلك من خلال النداءات المرتكزة على (أداة النداء) و(المنادى) الذي روعيت فيه المقامات الاجتماعية والسياسية بين المتكلمين؛ فجاء المنادى اسما مُجرَّدًا عندما يتحدث "هارون الرشيد"/ (الخليفة) إلى "بهلول"/ (من العوام)، ومن الطبيعي أن يأتي المنادى متبوعا بلقب الخليفة (أمير المؤمنين) إظهارا للمكانته الاجتماعية والسياسية أمام الجمهور؛ وليكون مقدمة تمهيدية للحجاج.

وذهب (ديكرو وزميله أنسكومبر) إلى أن وظيفة الحجاج تتجلى في (التوجيه) ويتحصل ذلك في مستويين: مستوى السامع، ومستوى الخطاب الذي يقع فيه ذلك الحجاج، وأن "الآية في توجيه السامع والتأثير فيه أو مواساته، أو إقناعه، أو جعله يأتي فعلًا ما، أو إزعاجه، أو إحراجه، وفي مستوى الخطاب يحصل هذا التوجيه حتى يكون القول (ق١) مؤدِّيًا بالضرورة إلى (ق٢) صراحةً أو ضمنًا"(٣).

ولنجاعة توجيه النصح والإرشاد للخليفة عول بهلول على حجاجه على سلسلة من الأفعال الكلامية والمفلوظات القولية، فالسلالم الحجاجية مجموعة من الأفعال القولية ذات الوظيفة الحجاجية، فتوجه المتلقي إلى نتيجة معينة. فضلا أن الملفوظات القولية مظهِرا

(١)جمع الجواهر في الملح والنوادر، ١٦٣.
(٢)فيض الخاطر، ١٣٠/٢.
(٣)الحجاج والاستدلال الحجاجي: إسماعيلي عليوي حافظ، دار ورد الأردنية، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ١٥٣.

من مظاهر حركية الحجاج؛ لأنها تستوجب النظرة للروابط والعوامل والقيم والسلالم جميعا. ويبرز ذلك على لسان بهلول **(رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ لا ضَرْبَ ولا طَرْدَ)**، **(ولا قِيْلَ بَيْنَ يَدَيْهِ: إِلَيْكَ إِلَيْكَ)**، **(وتَوَاضُعُكَ في شَرَفِكَ هَذَا خَيْرٌ مِنْ تَجَبُّرِكَ وتَكَبُرِكَ)**. لجأ "بهلول" إلى تضافر الأفعال الكلامية مع العامل الحجاجي التداولي (النفي) [1]؛ فتوشَّح السلم الحجاجي بظاهرتي الأفعال الكلامية الممتزجتين بالنفي، واللتين تدخلان في تفاعل دلالي، وتتجهان بالمتلقي إلى نتيجة هي غاية المرسل، كما هي غاية كل حجاج، وهذا يعني أن هذا التداخل الدلالي متحصل من تضافر الأفعال الكلامية مع النفي. وقد نجح ذلك في إقناع المخاطب والتأثير فيه؛ **(فبكى الرَّشِيدُ حَتَّى بَدَتْ دُمُوْعُهُ عَلَى الْأَرْضِ)**. ولعل ذلك ما دفع "بهلول" إلى الاعتماد على الأفعال الكلامية القولية عندما طلب منه "هارون الرشيد" الاستزادة **(أَحْسَنْتَ يَا بُهْلُوْلُ زِدْنا يَرْحَمْكَ اللَّهُ)** فجاءت الأفعال **(فَأَنْفَقَ مِنْ مَالِهِ)**، و**(عَفَّ فِي جَمَالِهِ)**، و**(عَدَلَ في سُلْطَانِهِ)**، **(كُتِبَ فِي دِيْوَانِ اللَّهِ مِنَ الأَبْرَارِ)**.

وأخذ المجنون يروي الأحاديث النبوية الشريفة ويستنبط العظات ذات الوقع ويستخلص منها الحجج والعبر المؤثرة التي تدفع الخليفة إلى محاسن الأخلاق كالتواضع وعدم التكبر، والبذل والعطاء والعفاف. وحاول الرشيد عبثاً استمالة المجنون والإحسان إليه، فعرض عليه أن يقضي ما عليه من دين ويجري عليه ما يكفيه وأمر له بجائزة سنيَّة. لكن "بهلول" رد كل تلك العروض والهبات، وختم بأن سوى تمام التسوية بينه وبين الخليفة فقال: (أنا وأنت في عيال الله فمحال أن يذكرك وينساني). وهو جواب مُسْكِتٌ أفحم قول الخليفة وأجبره على السكوت والامتثال لنصح بهلول، ولما يئس أمير المؤمنين من استمالة المجنون واسترضائه –سواء كان ذلك من باب الإغراء أو المجازاة – أرسل السجف وسار. ويلخص السلم الحجاجي طبيعة الحوار بين بهلول وهارون الرشيد:

(1) يعد الحجاجيون النفي عاملا حجاجيا تداوليا؛ لأنه أداة تتصل بالقضية فتحدث فيها تحويلا في قيمتها من حيث الصدق والكذب. المظاهر اللغوية للحجاج مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، ٩٩.

السلم	الحوار	المتحاورون	النتيجة
↑	يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنَا وَأَنْتَ عِيَالُ اللَّهِ	بهلول/ هارون الرشيد	جواب مُسْكِت
	فَهَلْ لَكَ أَنْ أُجْرِيَ عَلَيْكَ رِزْقاً يَقُومُ بِكَ ويَكْفِيكَ ؟	هارون الرشيد/ بهلول	استمالة وترغيب
	يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ إِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلَ الرَّأْيِ بِالكُوْفَةِ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ بِالدَّيْنِ لا يَجُوْزُ.	بهلول/ هارون الرشيد	تأكيد وإفحام
	قَالَ: يا بُهْلُولُ إِنْ كَانَ عَلَيْكَ دَيْنٌ قَضَيْتُهُ عَنْكَ	هارون الرشيد/ بهلول	استمالة وترغيب
	فقَالَ: أَرْدُدْهَا عَلَى مَنْ أَخَذْتَهَا مِنْهُ، فَلا حَاجَةَ لِيْ بِهَا	بهلول/ هارون الرشيد	رفض
	أَحْسَنْتَ يا بُهْلُولُ، وأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ.	هارون الرشيد/ بهلول	استمالة وترغيب
	قَالَ: رَوَيْنا أَنَّهُ ﷺ قَالَ: « أَيُّما رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَسُلْطَاناً وجَمَالاً فَأَنْفَقَ مِنْ مَالِهِ، وعَفَّ فِي جَمَالِهِ، وعَدَلَ في سُلْطَانِهِ، كُتِبَ فِي دِيْوَانِ اللَّهِ مِنَ الأَبْرَارِ	بهلول/ هارون الرشيد	استشهاد نصح توجيه
	فبكى الرَّشِيدُ حَتَّى بَدَتْ دُمُوْعُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وقَالَ: أَحْسَنْتَ يَا بُهْلُوْلُ زِدْنا يَرْحَمْكَ اللَّهُ	هارون الرشيد/ بهلول	تأثير واقتناع
	يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ رَوَيْنا بِالإِسْنَادِ عَنْ قُدَامَةَ بْن عَبْدِ اللهِ الْعَامِرِي، قَالَ: « رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ لا ضَرْبَ ولا طَرْدَ، ولا قِيْلَ بَيْنَ يَدَيْهِ: إِلَيْكَ إِلَيْكَ. وتَوَاضُعُكَ في شَرَفِكَ هَذَا خَيْرٌ مِنْ تَجَبُّرِكَ وتَكَبُرِكَ	بهلول/ هارون الرشيد	استشهاد نصح توجيه
	فرَفَعَ طَرَفَ السَّجْفِ، وَقَالَ: ادْنُ	هارون الرشيد/ بهلول	فعل أمر
	مَنْ يَجْتَرِىءُ عَلَيْنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟	هارون الرشيد/ الجنود	استفهام

شكل (٢٣) السلم الحجاجي بين بهلول المجنون/ المتكلم، وهارون الرشيد/ المخاطب

وقد يكون المجنون أداة للتشهير بالمعارضين وتشوية صورة الشخصيات ذوات الجاه والسلطان؛ فيتخذ عقلاء المجانين من التشهير والتشويه حرفة وصنعة للتكسب وجني الأموال معتمدين على قدرتهم على الحجاج والجدال والاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث والأشعار، فضلًا عن امتلاكهم قاعدة شعبية عريضة من الجمهور لمناداة عقلاء المجانين بتحسين أوضاع الحرافيش والعوام وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس جميعًا، يُضاف لذلك عدم تعرضهم للعقاب من المعارضين المُشهَّر بهم. ويبرز ذلك من خلال الحوار الدائر بين "عليَّان المجنون" و"تاجر البصرة" حيث **"كان بالبصرة رجل من التجار يُكنَّى أبا سعيد، وكانت له جارية تدعى جيرين، وكان بها كلفا، فمر يوماً بعليَّان وقد أحاط به الناس، فقالوا له: هذا أبو سعيد صاحب جيرين، فناداه: أبا سعيد! قال: نعم. قال: أتحبُّ جيرين؟ قال: نعم، قال: وتحبك؟ قال: نعم، فأنشأ قائل:**

نُبِّئتُها عَشِقت حَشًّا فقلت لهم ما يعشق الحشَّ إلا كلُّ كَنَّاسِ

فضحك الناس من أبي سعيد ومضى[١].

فعقلاء المجانين كانوا سلاحًا ناقدًا لاذعا مُصوَّبا تجاه الأغنياء وأصحاب السلطة؛ فالحوار يبرز الصورة المألوفة عند المجانين باعتراضهم سبيل من يريدون ويقولون لهم ما يشاءون أمام الجمهور، فعليَّان المجنون ينبهه أحد الحضور لمرور أبي سعيد التاجر البصري الذي كان كلفًا بجاريته جبرين، فأراد التعريض والتشهير به؛ فلجأ إلى توظيف السلم الحجاجي وفق السلميَّة التدريجية التي تعتمد على المزاوجة بين النداء والاستفهام: فالغرض من النداء تنبيه الحضور ليشهدوا الحجاج بين "عليَّان" و"أبي سعيد" فضلا عن تنبيه المخاطب للحوار والمحاجة بين الطرفين، والتثبت من خلو ذهن المخاطب من المشتتات. ثم بدأ "عليَّان" في توظيف الاستفهام التقريري **(أتحبُّ جبرين)**، **(وتحبك)** الذي يُراد منه أن يكون الجواب من إنتاج المخاطب؛ أي أن يكون مشاركا فعليا في الخطاب، وفي ذلك يقول ميشال لوكيرن Michael Loughran من السهل "أن ننفي ما يقوله من يتحدث، أكثر مما يسهل أن ننفي ما نستنتجه نحن عن طريق عملية تأويلية"[٢].

(١)العقد الفريد، ١٦٥/٧-١٦٦.

(٢)الاستعارة والحجاج: ميشال لوجيران، ترجمة: عبد الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، العدد الرابع، ١٩٩١م، ٨٨.

يحمل الاستفهام عن حقيقة محبة المخاطب للجارية بين طياته قوتين إنجازيتين هما: القوة الإنجازية المباشرة المتمثلة في طلب الجواب بينما تكمن القوة الإنجازية غير المباشرة في التهكم واستدراج المخاطب للسخرية منه أمام الجمهور، فبمجرد جواب المُخاطَب عن السؤال (نعم) ساق "عليَّان" بيتًا من الشعر وصفهما فيه بأقبح وصف وشبههما أنكر تشبيه وأخرجهما في أبشع صورة، فليس أبو سعيد إلا كنيفًا كريهًا، وليست جبرين إلا كناسًا ميَّالًا إلى ما سمج من المناظر ونتن من الروائح. وقد نجح "عليَّان" في إحراج التاجر أبي سعيد أمام الجمهور مستعينا بالسُلَّميَّة الحجاجيَّة القائمة على النداء والاستفهام والاستدراج والمفاجأة. وما وسع التاجر إلا أن يلوذ بالصمت، ويرضى بالانسحاب. ويمكن تمثيل السلم الحجاجي على النحو الآتي:

السلم	الحوار	المتحاورون	النتيجة
↑	فضحك الناس من أبي سعيد، ومضى		الإفحام والانسحاب
	نُبِّئُها عَشِقت حَشًّا فقلت لهم	كما يعشق الحشَّ إلا كلُّ كَنَّاسِ	التشهير والتشويه
	قال: وتحبك؟ قال: نعم	عليَّان/ التاجر	استفهام للسخرية
	قال: أتحب جيرين؟ قال: نعم	عليَّان/ التاجر	استفهام للاستدراج
	فناداه أبا سعيد! قال: نعم	عليَّان/ التاجر	نداء للتنبيه

شكل (٢٤) السلم الحجاجي بين عليَّان المجنون/ المتكلم، وأبي سعيد تاجر البصرة/ المخاطب

وقد يتخذ حجاج عقلاء المجانين ضد خصومهم منطلقًا أخلاقيًّا تربويًّا، لا علاقة له بالصراعات السياسية والحزبية. فالمجنون يهاجم خصمه لما شاع عنه من فساد الأخلاق والقيم، فعقلاء المجانين كانوا يحملون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد الأخلاقي والسياسي –من وجهة نظرهم– داخل مجتمعاتهم. ويتجلي ذلك في حوار "الفرزدق" و"الجرنفش" حيث يروى أنه **"لما قرَّب الفرزدق رأس بغلته من الماء، قال له الجرنفش: نحِّ رأس بغلتك حلق الله شأفتك! قال: لماذا عافاك الله؟ قال لأنك كذوب الحنجرة زاني الكمرة، فصاح الفرزدق: يا بني سدود، فاجتمعوا إليه، فقال: سوِّدوا**

الجرنفش عليكم؛ فما رأيت فيكم أعقل منه(١).

فالمخاطب/ (الفرزدق) لم يتعرض للمتكلم/ (جرنفش) بالإساءة أو بدء الحوار؛ لكن سرعان ما بادره "جرنفش المجنون" بالهجوم عندما لمح "الفرزدق" يخلع لجام بغلته ويدني رأسها من الماء؛ فدعا عليه "جرنفش" قائلاً: **(نح رأس بغلتك حلق الله شأفتك)**. الأمر والنداء في صدارة حوار جرنفش مع الفرزدق، فالمتكلم/ (جرنفش) يطلب من المخاطب/ (الفرزدق) عدم تقريب بغلته من الماء، ودعا عليه بالموت. ويحمل الأسلوبان بين طياتهما قوتين إنجازيتين تتمثلان في: القوة الإنجازية المباشرة هي الأمر والدعاء. بينما تكمن القوة الإنجازية غير المباشرة التي تمثل القوة الحقيقة المقصودة من هذا الخطاب الهجومي في استدراج المخاطب واستفزازه والتشهير به.

ومن ثم لجأ الفرزدق/ (المخاطب) إلى أسلوب الاستفهام المشفوع بالدعاء اللطيف**(لماذا عافاك الله؟)** لتهدئة المجنون. ويكشف أسلوب الاستفهام هنا عن الافتراض المسبق الدال على المعرفة السابقة بين طرفي الحوار. وارتكزت إجابة المجنون على أسلوب التعليل المبدوء بـ(إن) التأكيدية التعليل التي جاءت مع اللاحقة الإشارية (كاف الخطاب) للدلالة على قصدية المخاطب دون غيره، فضلا عن توظيف صيغة المبالغة (كذوب) في الحوار للدلالة على كون هذا الفعل الفاحش طبع متأصل في الفرزدق وليس حدث طارئ. ولزيادة إفحام المخاطب لجأ المجنون إلى الجواب المُسْكِت المُلْزِم للمخاطب بالسكوت والانسحاب من الحوار **(لأنك كذوب الحنجرة زاني الكمرة)**. فالسلم الحجاجي لعب دورًا جوهريًّا في تحقيق غرض المتكلم في إحراج المخاطب وإجباره على الانسحاب أمام المتكلم، فلم يجد "الفرزدق" مفرا من الانسحاب من محاورة "جرنفش"، والإقرار بحكمة "جرنفش" المجنون أمام الجمهور قائلا: **(يا بني سدود، سوِّدوا الجرنفش عليكم؛ فما رأيت فيكم أعقل منه)**.

(١)العقد الفريد، ١٧١/٧.

السلم	الحوار	المتحاورون	النتيجة
	فقال: سوِّدوا الجرنفش عليكم؛ فما رأيت فيكم أعقل منه	الفرزدق/العامة	اعتراف وهزيمة
	فصاح الفرزدق: يا بني سدود، فاجتمعوا إليه	الفرزدق/العامة	النداء
	قال لأنك كذوب الحنجرة زاني الكمرة	جرنفش/ الفرزدق	هجوم وتعليل
	قال: لماذا عافاك الله؟	الفرزدق/ جرنفش	استفهام
	نح رأس بغلتك حلق الله شأفتك	جرنفش/ الفرزدق	أمر ودعاء واستدراج

شكل (٢٥) السلم الحجاجي بين جرنفش المجنون/ المتكلم، والفرزدق/ المخاطب

ويكشف السلم الحجاج عن رجاحة عقل المجانين مع مخاطبيهم العقلاء، وصعوبة الخداع والمرواغة معهم؛ فالجنون كان قناعًا مُصْطَنَعًا اتخذه بعض العقلاء وسيلة للعيش في مجتمع حاول التضييق على الناس. فالمجنون قد يتخذ الجنون وسيلة للتكسب وجمع المال كما حدث حين "**مَرَّ بُهْلُولٌ بِقَوْمٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يَسْتَظِلُّونَ بِفَيْئِهَا، فَقَالَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ: تَعَالَوا حَتَّى نَسْخَرَ مِنْ بَهْلُولٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، قَالَ أَحَدُهم: يا بُهْلُولُ تَصْعَدُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ وتَأْخُذُ مِنَ الدَّرَاهِمِ عَشْرَةً؟**

قَالَ: نَعَمْ

فَأَعْطَوْهُ الدَّرَاهِمَ فَصَرَّها فِي كُمِّهِ. ثُمَّ قَالَ: هَاتُوا سُلَّماً.

فَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ فِي شَرْطِنَا سُلَّم.

قَالَ: كَانَ فِي شَرْطِي دُوْنَ شَرْطِكم"(١).

في البدء يصرح المتكلمون بهدف المحاورة الرئيس مع بهلول المتمثل في السخرية منه والاستهزاء به محاولين إغراءه بعشرة دراهم نظير صعود الشجرة. فما كان من المجنون غير مسايرتهم في الحوار حتى أخذ الدراهم (**فَصَرَّها فِي كُمِّهِ**)، ثم لجأ إلى خرق مبادئ التعاون التداولية في الحوار؛ فالمجنون هنا خرق مبدأ الكيف المرتكز على قاعدتين هما: (لا تقل ما تعلم كذبه) و(لا تقل ما ليست لك عليه بينة) (٢). فالمجنون مُدْرِك تمامًا لنوايا

(١)غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، ٣١٤.
(٢)اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ٢٣٨.

المخاطبين الحقيقة في السخرية والاستهزاء به؛ لكنه يتخذ من الجنون قناعا للتكسب وجمع المال، فما إن حصل على المال خرق مبدأ الكيف **(فَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ فِي شَرْطِنَا سُلَّم. قَالَ: كَانَ فِي شَرْطِي دُوْنَ شَرْطِكم)**؛ ليجد طريقة للهروب من الحجاج معهم والحصول على المال دون تنفيذ مطالبهم. فالحجاج يسير وفق السُلَّميَّة الآتية:

السلم	الحوار	المتحاورون	النتيجة
↑	قَالَ: كَانَ فِي شَرْطِي دُوْنَ شَرْطِكم	بهلول/ عاقل	إفحام وإسكات
	فقَالُوا: لَمْ يَكُنْ فِي شَرْطِنَا سُلَّم.	عاقل/ بهلول	استمالة المجنون
	فَأَعْطَوْهُ الدَّرَاهِمَ فَصَرَّها فِي كُمِّهِ. ثُمَّ قَالَ: هَاتُوا سُلَّماً.	بهلول/ عاقل	خرق مبدأ الكيف
	قَالَ: نَعَمْ	بهلول/ عاقل	استدراج ومسايرة
	يا بُهْلُولُ تَصْعَدُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ وتَأْخُذُ مِنَ الدَّرَاهِمِ عَشْرَةً؟	عاقل/ بهلول	استدراج وإغراء
	تَعَالَوا حَتَّى نَسْخَرَ مِنْ بَهْلُولٍ	جماعة عقلاء	المحتوى القضوي

شكل (٢٦) السلم الحجاجي بين جماعة من العقلاء/ المتكلمون، بهلول المجنون/ المخاطب

نتائج البحث

في الختام، يمكن إجمال النتائج التي توصل إليها البحث في النقاط الآتية:

١- هناك تمازج أو تقارب بين ألفاظ الحمق والجنون والتغفيل في الدلالة على سوء التصرف وغموضه، فجواز تبادل الاستعمال الدلالي بينها واقع بيد أن لفظتا الجنون والحمق لاقتا رواجا وانتشارًا في مصنفات القدامى مع قبول العربي أن يوصف بالجنون وكراهية الوصف بالحماقة.

٢- لا يمكن الجزم بأن روايات المجانين وأخبارهم–في مجملها– صادرة عن مجانين حقيقيين؛ بل هناك قدر غير قليل من هذه الروايات نسبت إلى عقلاء المجانين قصدا حين يدعي العاقل الجنون عمدا، أو رغبة في تشويه صورتهم في عيون أتباعهم؛ فقد تُنْسَبُ له روايات وأخبار تصفه بالجنون والحمق كما حدث مع بهلول. وكان القدامى على دراية بعدم سواسية المجانين في العقل والتصرف؛ فأهملوا ذكر روايات المجانين المرضى، وركزوا على روايات عقلاء المجانين لكونهم عقلاء يتمتعون بالأهليَّة يدعون الجنون تقية وقناعًا من الاضطهاد أو للشعور بحرية أوسع دون إيذاء أو محاسبة.

٣- تعددت أشكال الجنون والحمق عند الأمم والجماعات البشرية؛ فكان الجنون لفظة عامة تطلق على الغامض والخارق لنواميس الكون؛ فظهر جنون المسِّ والجنِّ، ثم خصصت دلالته فأصبح صفة ملازمة للخارجين عن العادات والتقاليد والأعراف الوثنية؛ فكان جنون الهرطقة أول ما عرف قبل الإسلام. ثم تحوَّلت دلالات ومعان الجنون مع مجيء الإسلام فأصبحت تطلق على النبي محمد (ﷺ) للطعن في أهليَّته وقواه العقلية للتشويش؛ من ثم منع تداولية الخطاب الديني مع أتباعه الطامعين في اعتناق الدين الجديد. ثم انتقلت دلالته للشعراء الذين وصفوا بالمجانين لاعتقاد الناس بأن الشياطين تلقي على ألسنتهم الشعر، وذاع مفهوم الحمق والجنون مع احتدام الصراع بين الأمويين والعباسيين؛ فأغلب العقلاء اتخذوا الجنون وسيلة للنجاة من الصراع بين الطرفين أو للسلامة من الاضطهاد والتنكيل أو للحرية في الدعوة الدينية أو للحرية السياسية؛ فعقلاء المجانين يقولون خطابا حجاجيا في ثوب هزلي ناقد للحكام والمجتمع دون وقوعهم تحت المحاسبة والتعذيب.

٤- كان الجنون تهمةً مُشينةً سالبةً للحريات، وطاعنة في أهليَّة الموصوف بها. تهمة جاهزة في وجه الخارجين عن العادات والأعراف والتقاليد السياسية والدينية والاجتماعية من قبل السلطة التشريعية والتنفيذية، وفي المقابل كان إدعاء الجنون مركب النجاة التي يستقلها العقلاء؛ لوقاية أنفسهم من الإيذاء والاضطهاد.

٥- لا يمكن قراءة محاورات عقلاء المجانين على أنها طفرات فردية أو حالات معزولة بل هي ألوان من التعبير -في أغلبها- عن حالات ذهنية راصدة لوعي فئات المجتمع وقتذاك. فأغلب موضوعات المحاورات تدور حول الممارسات والظواهر المتصلة بالدين والسياسة والاجتماع والأخلاق. وقد جمعت تلك المحاورات بين الدعوى والاعتراض والدحض التي تمثل ركيزة التداولية والحجاج. وتمثل خطابات عقلاء المجانين الصوت الجمعي المُعارِض المُناهِض لتدني أحوال المجتمع -وقتذاك- على الأصعدة كافة الدينية والسياسية والاجتماعية والدينية.

٦- أغلب مسميات أخبار الحمقى والمغفلين والمجانين المنثورة في الكتب الأدبية التراثية خادعة ومضللة؛ فالمرويات والأخبار المحكية لا تنفك عن الجد والحيلة والحجاج. فضلًا عن طرحها لقضايا خلافية مذهبية أو صراعات سياسية أو نقد لاذع لغياب العدالة الاجتماعية. فالحكايات والمرويات ظاهرها الحمق والجنون والهزل بيد أن هدفها الرئيس منتهى الجدية والحكمة والعقلانية. عبارة التحميق تلوح في عدد من المواطن متمحضة للدلالة على أن العملية عملية إرادية محددة الاتجاه تحديدًا مُسْبقًا. والذي يدعم هذا المتأول دعما قويا هو أن المستهدفين بهذا العمل ليسوا -في جملتهم- أشخاصًا عاديين، فلا يخلو حالهم من أن يكونوا سادة أو أقرباء سادة أو أناسا مؤثرين على نحو من الأنحاء.

٧- حوارات عقلاء المجانين شكل من أشكال التمرد والمعارضة التي تتخذ من الجنون ستارًا وقناعًا للمطالبة بالحريات والعدالة الاجتماعية، فتضمَّنت صنوفًا من المغالطات الدينية والتاريخية والإعراض والاحتيال على الواقع تحريفًا لمجراه وتغييرًا لمساره، مما ساعد على ديمومة الحوار بين الذوات المتحاورة؛ فالإعراض والاحتيال والمغالطات نسبيَّة متفاوتة قوةً وضعفًا مما يُعطي الحوار شحنات من المقولات الخطابية الإنجازيَّة

لمقاصد المتكلمين؛ فصارت خطابات عقلاء المجانين مرآة عاكسة للواقع الاجتماعي الإنساني.

٨- شكَّل الخطاب الديني والسياسي قوام أغلب خطابات عقلاء المجانين؛ فأغلب الحوارات تبرز الاتجاهات العقائدية والمذهبية والصراع السنى الشيعي المحتدم بين الأمويين والعباسيين. وراتبطت الحوارات الدينية بالحوارات السياسية ارتباطا وثيقا؛ فثمة جموع غفيرة من الناس لم تقبل مثلا أن تغتصب الخلافة مرة أولى على أيدي بني أمية، ولم يستمرئوا أن تنتزع ثانية على أيدي بني عمومة العلويين بعد أن كان أمرهم واحدا، وكانت الدعوة في محتواها ورموزها شيعية حافلة بما جسم من التضحيات وعظم من البطولات.

٩- خطابات عقلاء المجانين ذات طبيعة تداولية فريدة توافرت فيها الأبعاد الضامنة لديمومة الخطاب بين الذوات المتحاورة؛ فعقلاء المجانين أهل نظرة فاحصة انتقائية لمخاطبيهم الذين تنوعت درجاتهم الوظيفية والدينية والاجتماعية. ويدور الحوار بين المتكلمين والمخاطبين حول موضوعات جديَّة متعلقة بالأمور السياسية والاجتماعية والدينية عبر شفرة لغوية تمتاز بالرصانة والفصاحة الجامعة بين الأسلوب الرشيق المُقدَّم في قالب هزلي ساخر ناقد لتصرفات المخاطبين. ويحرص عقلاء المجانين على تقوية خطاباتهم بالاستشهاد على كلامهم بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والشعر؛ لزيادة إقناع المخاطب وإلزامه بالحجة وصولا إلى الإقناع أو الإفحام وعدم الرد؛ فلا يجد العقلاء أمام حجج عقلاء المجانين سوى الإذعان أو الانسحاب أو محاولة استمالتهم للحد من شدة حجاجهم.

١٠- يبرز البعد التداولي بقوة في خطابات عقلاء المجانين؛ فالتداولية تركز على عناصر الموقف الاتصالي: (المتكلم والكلام والسامع)؛ فالمتكلم ينتج كلامًا واعيا مقصودا، ويهدف به إحداث نتيجة أو يحدث تغييرًا في الواقع، وتأثيرًا في السامع وتوجيهه. وعقلاء المجانين يصدرون مجموعة من المقولات الخطابية (فعل القول) حول قضايا دينية أو سياسية أو اجتماعية معولين على الأساليب اللغوية بقصد التأثير في جمهور المخاطبين (الفعل التأثيري)، ويحكم الحجج والأدلة والشواهد القرآنية

والشعرية بقصد إلزام مخاطبيه بالحجة والبرهان والإذعان للمحتوى القضوي موضوع المحاورة (الفعل الإنجازي)؛ فلا يجد المخاطب أمامه سوى الفرار من وجه المجنون أو محاولة استمالته وإرضائه.

١١- كانت القصدية حاضرة بقوة في خطابات عقلاء المجانين؛ فهم لا يدخلون محاورة جدلية حجاجية مجانية؛ بل يقصدون إلى تحقيق مقاصد إقناعية أو تأثيرية في المخاطبين، أو ربما مادية للتَّكسُّب والمال، وتضمن لهم براعتهم في الحجاج تحقيق ذلك؛ لكونه الطريقة المثلى الكاشفة عن متضمنات القول من قوى حجاجية للأقوال في الحوارات الدائرة بين المتكلمين، فلا انفصام بين الحجاج ومتضمنات القول، فالمتكلم المحاجج يحاول توجيه المخاطب وجهة حجاجية ما.

١٢- ارتكزت الأفعال الكلامية في خطابات عقلاء المجانين على تضافر القرائن السياقية الجامعة بين الأساليب اللغوية والأفعال الكلامية في تناغم يؤدي إلى ديمومة الخطاب بين المتحاورين، والكشف عن القوة الإنجازية المباشرة وغير المباشرة الكامنة في الأفعال الكلامية. وشكَّل أسلوب الاستفهام والشرط الركيزة الأساسية للمكونات التداولية في خطابات عقلاء المجانين. وعوَّل عقلاء المجانين على الاستفهام بنوعيه: التقريري والإنكاري لإلزام المخاطبين بالحجة والبرهان. وليس الهدف من توظيف الاستفهام في خطابات المجانين طلب الجواب من المخاطبين، فالجواب شبه معروف بين الطرفين لوجود الافتراض المسبق بينهما، إنما الهدف يكمن في إشراك المخاطب في الحوار بطريقة خفية لإجباره على الرد ثم إلزامه الحجة وتقديم الدليل والبرهان على سؤال المتكلم.

١٣- تمتاز خطابات عقلاء المجانين بالطابع الحجاجي الفريد الذي يركز فيه المحاجج على انتقاء الأدلة والبراهين المؤثرة في المخاطب من ثم يضمن تحقيق الفعل الإنجازي الذي يقوده إلى نجاعة الحجاج باقتناع المخاطب أو انسحابه بعدما يأس من محاججة عقلاء المجانين الحجة بالحجة. وتعددت آليات الحجاج في خطابات عقلاء المجانين، فارتكزت على الحجاج بنوعيه: المنطقي القياسي والحجاج المغالط بهدف إفحام المخاطب وإلزامه الحجة والبرهان، وضمان الانتصار في المحاجة على المخاطب.

فضلًا عن الاعتماد على الجواب المُسْكِت الملزم للمخاطب بالسكوت وعدم الرد على المجنون؛ فيراعي التناسب الدقيق بين المقام والمقال مع التركيز على الرسالة اللغوية اللاذعة المحرجة للمخاطب. وبالإضافة إلى حرص عقلاء المجانين على التدرج في إيراد الحجج والبراهين والأدلة في المحاورة عن طريق السلالم الحجاجية الضامنة لسلاسة ورود الحجج على عقول المخاطبين؛ لضمان حدوث التأثير والإقناع.

١٤- طغى الحجاج المغالط على الحجاج المنطقي القياسي في خطابات عقلاء المجانين التي تحاول الخداع والإيهام للمخاطبين لإقناعهم بالمحتوى القضوي للمحاورة. يحاول المتكلم قلب الحقائق لحمل المخاطبين على الانتقال من طور التصور النظري إلى طور التصديق العملي. فلاشك أن توظيف الحجاج المغالط دلالة قطعية على رجاحة عقل المجانين الذين نجحوا في إلزام خصومهم الحجة وإحراجهم أمام الجمهور.

١٥- المغالطات الحجاجية تضمن ديمومة الخطاب بين المتحاورين؛ لاعتمادها على الاعتراض والمطالبة بالبرهان والدليل على صحة الدعوى بين المتحاورين، فيرتقي الحجاج والخطاب معًا إلى مستويات عليا من التفكير والبيان الحجاجي؛ فينتقل الحجاج من الدعاوى غير البرهانية إلى الدعاوى البرهانية. فالمغالط يحاول إثبات ما يريد الاستدلال عليه برده إلى علة مغايرة لعلته الحقيقية. فالمغالطة ضرب من الحجاج، يختلف عن الحجاج المستقيم بكونه يوظف الحجة توظيفًا خاطئًا مقصودًا فإن كانت الحجة مقصودة تهدف إلى التضليل فهي حجة مغالطة.

١٦- تعددت المغالطات الحجاجية في خطابات عقلاء المجانين لتمكنهم من ناصية اللغة والمنطق، فظهرت مغالطة الإعجام القائمة على التصحيف الحروف المعجمة فتؤدي إلى تغيير المعاني والدلالات، ومغالطة الخداع والمراوغة القائمة على مقدمات فاسدة؛ لإيهام المتلقي بصحة النتائج، ومغالطة العلة الفاسدة التي ارتكزت عليها الخطابات الدينية السياسية. وشكلت (المغالطات اللغوية) القائمة على التلاعب بالأساليب والتراكيب اللغوية بالتقديم والتأخير والذكر والحذف أبرز المغالطات الحجاجية البارزة عند عقلاء المجانين كافة؛ لتمكنهم من ناصية اللغة وقدرتهم على الخداع المرواغة والحجاج الجامع بين الحكمة والطرافة والنقد اللاذع دون الوقوع تحت

طائلة القانون والعقاب.

١٧- كانت "المفاجأة الحجاجية" أساس بنية خطابات عقلاء المجانين؛ فلقاء المجنون العاقل بمحاوريه يمثل لحظة حضور خطاب اللاعقل في السياق الثقافي لخطاب العاقل. يقول المجنون كلاماً يحاسب العقل عليه مستترًا بالحمق الذي يمثل الطبيعة المضادة للعقل؛ ليحمي نفسه من المجتمع والقانون، فالمجنون مزدوج الشخصية في الخطاب الحواري: متحامق حاضر البديهة يحاول إيصال المعلومة بطريقة ساخرة، وفي الوقت ذاته عاقل قادر على الرد بطريقة يظهر فيها بالأحمق كاسد العقل، يفاجيء محاوريه بسرعة البديهة والعقل الواعي القادر على إحراجهم أمام الجمهور والعوام، ويعجز المخاطب عن معاقبة المجنون لأنه في نظر الناس من المجانين. فالحوار جامع للثنائيات الضدية: عاقل عاجز عن الرد ومجنون قادر على الرد ومهاجمة العاقل، مخاطب يملك القوة والسلطة لكن عاجز عن معاقبة مجنون أعزل لا يمتلك غير لسان فصيح ومنطق وعقل سليم قادر على المحاورة وإحراج مخاطبيه.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر (المأخوذ منها الأخبار المدروسة)

١- أخبار الأذكياء: ابن الجوزي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢- أخبار الحمقى والمغفلين: ابن الجوزي البغدادي، شرح: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٣- المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الأبشيهي، منشورات دار الحياة، بيروت، (د.ط)، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٤- الأدب الصغير والكبير: ابن المقفع، تحقيق ودراسة: إنعام الفوال، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥- الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

٦- البخلاء: االجاحظ، تحقيق وتعليق: طه الحاجري، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، (د.ت).

٧- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٨- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس: ابن عبد البر القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

٩- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

١٠- التذكرة الحمدونية: ابن حمدون، تحقيق: إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١١- جمع الجواهر في الملح والنوادر: أبو إسحاق الحصري القيرواني، تحقيق وضبط: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٣م.

١٢- الحيوان: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
١٣- العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.
١٤- عقلاء المجانين والموسوسين: أبو محمد الضراب، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٥- عقلاء المجانين: أبو القاسم النيسابوري، تحقيق: عمر الأسعد، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
١٦- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة: أبو عبد الله الوطواط، تحقيق وتعليق: محمد عبد الله قاسم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.
١٧- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ابن الطقطقا، دار صادر بيروت، (د.ط)، (د.ت).
١٨- المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين الأبشيهي، إشراف المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

ثانيا: المراجع العربية

١- الأجوبة المُسْكِتة: ابن أبي عون، دراسة وتحقيق: مي أحمد يوسف، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
٢- إحياء علوم الدين: الغزالي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢.
٣- إستراتيجيات الحجاج المغالط وأساليبه في التراث العربي: عبد الحميد بو غزالة محمد، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد الثاني، المجلد الحادي عشر، ٢٠١٩م.
٤- إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
٥- الاستعارة والحجاج: ميشال لوجيران، ترجمة: عبد الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، العدد الرابع، ١٩٩١م.

٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م.
٧- ألفاظ الجنون والحمق ومفاهيمها في العربية: كريم حسام الدين، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٤م.
٨- أمالى ابن الحاجب: أبو عمرو بن الحاجب، دراسة وتحقيق: فخر صالح سليمان قدارة، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
٩- البداية والنهاية: ابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
١٠- البلاغة الاصطلاحية: عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
١١- بلاغة الإقناع في المناظرة: عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
١٢- تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٣- تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي: ميشيل فوكو، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٤م.
١٤- تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا: كلود كيتيل، ترجمة: سارة رجائي يوسف وكريستينا سمير فكري، مراجعة: داليا محمد السيد الطوخي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
١٥- التاريخ الصغير: البخاري، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
١٦- تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب: محمد العبد، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد الخامس والستون، ٢٠٠٤م.
١٧- التعريفات: الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، (د. ط)، ١٩٨٥م.

١٨- تفسير البغوي "معالم التنزيل، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة خميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، (د. ط)، ١٤١١هـ.

١٩- تفسير الطبري، تهذيب وتحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٢٠- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: جمال الدين المزِّي، تحقيق وضبط: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٢٢- ثمرات الأوراق: ابن حجة الحموي، تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٣- جحا الضاحك المضحك: عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م.

٢٤- الجنون في الأدب الفرنسي: العقل واللاعقل أو خطاب الجنون عند ديدرو: محمد على الكردي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، ١٩٨٧م.

٢٥- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: الصبان، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

٢٦- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٢٧- الحجاج والاستدلال الحجاجي: إسماعيلي عليوي حافظ، دار ورد الأردنية، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٢٨- خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي: عباش حشاني، عالم الكتاب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٢٩- الخلاصة النحوية: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣٠- دائرة الأعمال اللغوية مراجعات ومقترحات: شكري المبخوت، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٣١- سير أعلام النبلاء: الذهبي، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٣٢- شرح الرضى على الكافية: رضى الدين الاستراباذى، منشورات جامعة قان يونس، بنغازى، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

٣٣- شرح المفصل: ابن يعيش، تقديم وفهرسة: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٣٤- شرح المقاصد: مسعود التفتازاني، تقديم: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٣٥- شياطين الشعراء دراسة تاريخية نقدية مقارنة تستعين بعلم النفس: عبد الرازق حميدة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

٣٦- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٣٧- علم النص مدخل متداخل الاختصاصات: تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٣٨- عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية لآليات التواصل والحجاج: عبد السلام عشيري، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦م.

٣٩- الفهرست: ابن النديم، تحقيق: رضا تجدد، (د.ط)، (د.ت).

٤٠- فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

٤١- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.

٤٢- في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: مسعود صحراوي، ضمن كتاب "التداوليات علم استعمال اللغة"، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٤٣- فيض الخاطر: أحمد أمين، مكتبة هنداوي، القاهرة، (د.ط)، ٢٠١١م.

٤٤- القاموسُ الموسوعي للتداوليةِ: جاك موشلر وآن ريبول، المركز الوطنى للترجمة، تونس، دار سيناترا، ٢٠١٠م.

٤٥- القاموس الموسوعي للتداولية: جاك موشلر وآن ريبول، المركز الوطنى للترجمة، تونس، منشورات دار سيناترا، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م.

٤٦- الكامل في ضعفاء الرجال: ابن عدي الجرجاني، دار الفكر، (د. ط)، (د. ت).

٤٧- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، (د. ت)، (د. ط).

٤٨- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، عناية: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٤٩- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٥٠- اللسانيات والحجاج، الحجاج المغالط، نحو مقاربة لسانية وظيفية، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، الجزء الثالث، ٢٠١٠م.

٥١- اللغة والحجاج: أبو بكر العزاوي، مطبعة العمدة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

٥٢- مجمع الأمثال: الميداني، المعاونية الثقافية للأستانة الرضوية المقدسة، (د.ط)، ١٣٤٤هـ.

٥٣- مروج الذهب: المسعودي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

٥٤- المظاهر اللغوية للحجاج مدخل إلى الحجاجيات اللسانية: رشيد الراضي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٥٥- معانى الحروف: أبو الحسن الرُّماني، تحقيق: عرفان بن سليم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٥٦- معجم اللغة العربية المعاصر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٥٧- معجم تحليل الخطاب: باتريك شارودو- دومينيك منغو، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨م.

٥٨- معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محمد سالم محيسن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٥٩- المغالطات في القياس المنطقي عند الإمام الغزالي: هاني علي سليم طليون، مجلة قطاع أصول الدين، العدد التاسع عشر.

٦٠- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٥م.

٦١- المقتضب: المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٦٢- مقدمات في علم المنطق: هادي فضل الله، دار الهادي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.

٦٣- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.

٦٤- ميزان العمل: الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

٦٥- النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع: محمد العبد، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ستون، ٢٠٠٢م.

٦٦- النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، ٢٠٠٠م.

٦٧- النظرية الألسنية عند جاكبسون دراسة ونصوص: فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٦٨- نظرية الحجاج في اللغة: شكري المبخوت، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، (د.ط)، (د.ت).

٦٩- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية: محمد طروس، دار الثقافة والنشر، المغرب، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٧٠- الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع الدينية المسيحية: ج٠ ويلتر، ترجمة: جمال سالم، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، (د.ط).

٧١- الوصائل الحجاجية في المقارنات اللسانية العربية: خليفة الميساوي، ضمن كتاب "الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسة في البلاغة الجديدة: حافظ إسماعيلي علوي، دار ورد، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م،

٧٢- الوظائف التداولية في اللغة العربية: أحمد المتوكل، دار الثقافة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٧٣- الوظيفة والبنية مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية: أحمد المتوكل، منشورات، عكاف، (د.ط)، ١٩٨٨م.

٧٤- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: الثعالبي، مطبعة حجازي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

ثالثا: المراجع الأجنبية

1- C. Plantin: Essai sur L'argumentation, Ed, Kim, Paris, 1990.
2- Ducrot Oswald: Les Echelles Argumentatives, ed de Minuit, 1980, Paris.
3- Martin, Howard, H. Andersen, Kenneth, E.: Speech Communication, Allyn and Bacon, Inc., Boston, 1968.
4- Martine Bracops, Introduction A la pragmatique, de boeek duculot.

5- Michel Foucault: Historie de la Folie al'age classique, Paris, Galimard, B. H. 1972.
6- Perelman, Chaim: Le Champ de L'argumentation. Paris, presse universitaires de France.
7- Watzlawick: Une Logique de la Communication Ed. Seuil, 1972.